سورة التوبة

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ: تبؤ وتباعد واصل من الله .

عَاهَدتُّم: فنقضوا العهد .

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ: أولها عاشر ذي الحجة .

غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ: غير فائتين من عذابه بالهرب.

وَأَذَانٌ: إعلام وإيذان .

يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ: يوم النحر سنة تسع .

وَرَسُولُهُ: أي برىء أيضا من المشركين .

لَمْ يَنقُصُوكُمْ: لم ينقضوا عهدكم بل وفوا به.

وَلَمْ يُظَاهِرُوا: لم يعاونوا .

إن فرصة السكنى والعيش في رحاب هذا العالم الراهن، التي أتيحت للإنسان ليست بناءً على أي حقٍ ذاتي، بل هي لمجرد الابتلاء والامتحان، فالله - سبحانه وتعالى - يبقى كل أحدٍ على ظهر هذه الأرض ما شاء، ثم إذا انقضت مدة امتحانه، تبعاً لعلمه تعالى، رفعه من هنا بإحلال الموت عليه ، وتظهر هذه المعاملة ذاتها بصورةٍ أخرى مع المخاطبين المباشرين للرسول، فإن الرسول يبذل قصارى جهده في تبليغ رسالته إلى الذين بُعث فيهم، ويقيم عليهم شهادة الحق إلى الحد الأقصى، والذين لا يؤمنون بالرسول، حتى - رغم انتهائه من أداء واجبه الدعوي على أكمل وجهٍ، يفقدون - بطبيعة الحال - حق الحياة على أرض الله هذه، حيث إنهم لم يُخلقوا هنا إلا من أجل الابتلاء، وقد اكتمل الابتلاء - الآن - بتمام إقامة الحجة، فعلام سيكون حق الحياة بعدئذٍ ؟! ولهذا السبب فعندما ينتهي الرسل من أداء واجبهم المنوط بهم، تنزل على المكذبين أية آفة مجحفة تقطع دابرهم وتستأصل شأفتهم .

وقد جرت هذه المعاملة ذاتها مع مخاطبي رسول الله ﷺ إلا أنهم لم تحل عليهم أية آفةٍ أو كارثةٍ سماويةٍ .. وإنما تم تنفيذ سنة الله عليهم في إطار الأسباب ، ففي المقام الأول تم إيصال الدعوة إليهم من خلال أسلوب القرآن الرفيع، وسلوك الرسول الأخلاقي الأسمى ، ثم أقيمت الحجة على أهل الشرك بتمكين أهل التوحيد من الظفر والغلبة عليهم ، وبالرغم من ذلك ما زال هؤلاء مصرّين على كفرهم وجحودهم، فقد وُجه إليهم الإنذار النهائي، باعتبارهم مرتكبي الخيانة والغدر باستمرارٍ، بأن أصلحوا أنفسكم في غضون أربعة أشهرٍ، وإلا فسيتم القضاء عليكم بسيوف المسلمين !!

ثم إن هذه المعاملة كلها قد أجريت على مبدأ التقوى وليس على مبدأ السياسة القومية، حيث تم إفحام المشركين أولاً في ميدان الدليل، كما أتيحت لهم فرصة النظر والتدبر في أمرهم لعدّة أشهرٍ من خلال إنذارٍ مسبقٍ، وما زال الباب مفتوحاً على مصراعيه حتى الساعة الأخيرة، لكي يتوب منهم من شاء، فينضمّ إلى عباد الله المنعم عليهم، وبعض القبائل التي لم تكن نقضت العهد، قد استُثنى أمرها من حكم الناقضين

للعهد...إلخ.

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

انسَلَخَ الأَشْهُرُ: انقضت أشهر العهد الأربعة.

وَاحْصُرُوهُمْ: احبسوهم، أو ضيقوا عليهم وامنعوهم.

كُلَّ مَرْصَدٍ: كل طريق وممر ومرقب.

اسْتَجَارَكَ: بعد انسلاخ أشهر العهد.

القتال الذي أُمر به هنا، بعد مضي أشهر الإمهال الأربعة، لم يكن قتالاً عاماً، بل كان ذلك بموجب سنة الله، العذاب الذي أُنزل عليهم جزاء إنكارهم للرسول، فهؤلاء بإصرارهم على إنكار رسول الله- رغم قيام الحجة عليهم- كانوا قد جعلوا أنفسهم أهلاً لإحدى اثنتين: إما السيف وإما الإسلام، إن هذه سنة إلهية خاصة تتعلق بالمخاطبين المباشرين للرسول، وليس بعامة الناس، على أن هذا الأمر لم يُنفذ عليهم فجأةً حتى بعد إقامة الحجة، بل تم تأجيلهم في المرحلة الأخيرة لمدة أربعة أشهرٍ، الانتقام لا يعرف العفو والصفح، والعملية التي يتم اتخاذها بدوافع الانتقام لا تهدأ ولا تقف إلا بعد أن ترى خصمها وقد صار إلى الهوان والدمار.

غير أن العملية التي اتخذت ضد مشركي العرب لم يكن مصدرها أي نوعٍ من الانتقام، بل كانت تستند على مبدأ الواقعية، ولهذا، فبالرغم من صدور مثل هذا الأمر الصارم فيهم، مازالت الفرصة متاحةً لهم في كل لحظةٍ، ليتخلصوا بأنفسهم من هذا العذاب إن شاؤوا، باعتناقهم الإسلام، ويتمتعوا بالتالي بحياة العز والكرامة في رحاب

المجتمع الإسلامي، ويكفي لقبول توبة تائبٍ ما توافر شرطان عمليان فحسب هما : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وفي أثناء الحرب، لو أن أحد الأعداء أبدى رغبته في التعرف على الإسلام ودراسته، فيجب على المسلمين أن يؤمّنوه، ويأتوا به إلى بيئتهم، ويحاولوا تقريب رسالة الإسلام إلى فهمه وإقرارها في قلبه، وحتى لو أنه رفض قبول الإسلام، فمن واجبهم أيضاً أن يوصلوه إلى مكان أمنه واستقراره تحت حمايتهم، ومع أنه بموجب الحكم العام مباح الدم لكن لا يستساغ قتله بسبب عدم قبوله بالدين، إذْ ليس من الجائز أن نرفع السيف على مستأمنٍ ما دام في أماننا.

إن منح العدو فرصة كهذه، وحالة الحرب قائمة، أمر جد خطيرٍ، إذْ من الممكن جداً أن يندسّ أي جاسوسٍ من جواسيس العدو، باستغلال هذه الفرصة، في صفوف المسلمين، ويحاول استكشاف أسرارهم العسكرية، ولكن قضية الدعوة والتبليغ بالغة الأهمية في نظر الإسلام لدرجة أنه لم يغلق بابه - رغم هذا الخطر الدقيق .. وإذا كان شخص ما يمارس الظلم بسبب جهله وعدم معرفته، مهما كان ظلمه عظيماً، فإنه سيُقابل بكل إعفاءٍ وتنازلٍ ممكن، إلى أن يذهب جهله ويصل إليه نور العلم والمعرفة .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ: فما أقاموا على العهد معكم .

يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ : يظفروا بكم .

لاَ يَرْقُبُوا: لا يراعوا.

إِلاًّ: رحما وقرابة أو حلفا وعهدا.

ذِمَّةً: عهدا أو أمانا أو ضمانا .

ما إن قويت شوكة المسلمين حتى عقدت قريش معهم معاهدات، بيد أنهم لم يكونوا بهذه المعاهدات راضين، حيث كان يخيل إليهم أن هذه المعاهدات التي عقدوها مع ((عدوهم)) إنما تنطوي على دمارهم المحقق، ومن ثم - فدائماً - ما كانوا يتحينون الفرصة للنيل من المسلمين أو تشويه سمعتهم - على الأقل - بنقض العهد عند أول بادرةٍ تلوح لهم، ومن الظاهر أنه إذا ظهرت مثل هذه الخيانة من قبل أحد الفريقين فلا يعود الفريق الآخر مسئولاً عن الالتزام بمعاهدةٍ ما .

هذه كانت حال قريش الذين كانوا يرون في امتداد نفوذ المسلمين زوال قيادتهم وسلطانهم ، على أن هناك عدداً من القبائل العربية - مثل بني كنانة، وبني خزاعة، وبني ضمرة - التي لم تكن مصابةً بتعقيداتٍ نفسيةٍ كهذه، قد عقدت مع المسلمين معاهداتٍ وظلت ثابتةً عليها دون خيانةٍ ولا غدرٍ، وحين تم إعلان الأربعة الأشهر كمهلةٍ نهائيةٍ حاسمةٍ، كان قد بقي لهم تسعة أشهرٍ من مدة عهدهم، فأُمر بإتمام عهدهم إلى مدته المضروبة ؛ لأن هذا هو مقتضى التقوى، ولكن بعد انقضاء هذه المدة، لم يعُقد مع أحدٍ أي معاهدةٍ من هذا النوع، وإنما خُيّر المشركون جميعاً بين اثنتين : إما الإسلام وإما الحرب.

إن الحياة الاجتماعية ترتكز دوماً على شيئين اثنين : القرابة والعهد أو الميثاق، فالمرء إنما يراعي حقوق ذوي الأرحام على أساس العلاقة الرحمية التي تربط بينهم، أما الذين

تم التعاقد بينه وبينهم فهو يراعى حقوقهم بموجب هذا العقد، على أن المرء حين تستولي على رأسه منفعة الدنيا وتستبد به بعض مصالحها العاجلة، فلا يلبث أن ينسى - أو يتناسى - هذين الأمرين معاً، حيث تشغله منافعه الخسيسة عن مراعاة حقوق ذوي القربى، كما تشغله عن كل العهود وشروطها - أيضاً، إن أمثال هؤلاء هم المتجاوزون الحد في الظلم والبغي، وهم عصاة مجرمون عند الله - تعالى، وإن أمكنهم أن يفلتوا في هذه الدنيا، فلن يتمكنوا من التخلص من بطش الله في الآخرة أبداً، اللهم إلا أن يتوبوا إلى الله، فيكفوا عن بغيهم وعدوانهم .. إن شخصاً ما، مهما كان ضالاً وسيئاً فيما مضى من عمره، إلا أنه إذا ما قبل الهداية وأصلح نفسه، صار عضواً عزيزاً من أعضاء المجتمع الإسلامي، وبعدئذٍ لا يعود بينه وبين غيره من المسلمين أي فارقٍ أو امتيازٍ .

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم: نقضوا عهودهم المؤكدة بالأيمان .

غَيْظَ قُلُوبِهِمْ: غضبها ووجدها الشديد .

المراد بأئمة الكفر هم قريش، الذين كانوا - لمركزهم القيادي في جزيرة العرب - يقودون حركة المعارضة والمعاداة ضد الإسلام، ونعلم من موقف قريش السلوكي هذا أن حركة الإسلام حين تقوم، فأي طائفة تقف معارضة أولى لها؟ إنها الطائفة التي ترى في رسالة الحق الخالص إيذاناً بزوال سيادتها وكبريائها، تلك هي طبقة الأشراف التي

تمتلك العقل الذي يمكنها من تشكيك الناس في الدعوة الإسلامية بإثارة شبهاتٍ وأباطيل مفترياتٍ حولها، وهي التي يتوافر لديها من الأسباب والوسائل ما يعينها على وضع العراقيل والعقبات في طريق دعاة الإسلام - تثبيطاً لعزائمهم، وهي التي تجد نفسها من البأس والقوة بحيث تدبر المكائد والحيل لإخراج أنصار الحق من بيوتهم، حتى إنها هي التي تحظى بفرصٍ ومواقع نفوذٍ تستطيع معها أن تشعل نار الحرب ضد المؤمنين بالإسلام متى شاءت .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ ﴾ تنطوى على مغزى عميق جداً، فالذين ينهضون ويتحركون على أساسٍ من العداوة والعناد، لا تجدر وعودهم ومواثيقهم بالثقة، ولا يمكن الاعتماد عليها البتةَ، فإن نفوسهم لا تزال تغلى ثورةً وغضباً على خصومهم، وهم لذلك أبعد ما يكونون عن الثبات والاستقامة والوقار، وحتى لو أنهم عقدوا المعاهدة يوماً، فلا يقدرون- بحكم طبيعتهم ومزاجهم- على الإبقاء عليها لأمدٍ بعيدٍ، فلا تكاد تمضي مدة يسيرة من الزمان حتى ينكثوا بالعهد اندفاعاً وراء عواطفهم السلبية، وهكذا يتيحون لأهل الحق الفرصة لكى يقوموا باتخاذ إجراءٍ دفاعى ضدهم، والقضاء عليهم نهائياً بنصر الله، وبدون أن تُوجه إليهم تهمة بدء العدوان .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وَلِيجَةً: بطانة وأصحاب سر وأولياء .

إن المرء حين يجعل من شيءٍ ما هدفاً لحياته في هذا العالم، فتواجهه ألوان شتى من المشاكل والمقتضيات في طريق الوصول إلى هدفه المنشود ذاك، ولو أن المرء كان محباً لهدفه مخلصاً له، لسخر كل قواه وطاقاته في اجتياز هذه المشاكل والوفاء بتلك المقتضيات، وذلك هو الجهاد .. وهذا الجهاد يمر به كل أحدٍ في هذا العالم، فكل امرئ يجد نفسه مضطراً إلى أن يقيم الدليل على بحثه وطلبه على مستوى الجهاد، وبعدئذٍ -

فقط - يمكنه أن ينجح في بحثه ويحصل على مطلبه، وإنما الفارق هو أن غير المؤمن يجاهد فى سبيل الدنيا، والمؤمن يجاهد في سبيل الآخرة .

وإن هذا الجهاد هو الذي يثبت مدى جدية المرء وإخلاصه في هدفه المنشود، وإن شخصاً يدعي الإيمان ليمر من حين إلى حينٍ بأحوال مختلفةٍ تكون امتحاناً لدعواه، فقد يتأثر قلبه بمشاعر البغض والحسد نحو أحد الناس، فيملي عليه إيمانه أن طهر قلبك من كل العواطف والمشاعر من هذا النوع!، وقد ترد على لسانه كلمات بذيئة، فيقتضي الإيمان أن يمسك لسانه، وقد يضطر في خلال التعامل مع غيره أن يدفع إليه حقاً لا ترضاه النفس، ولكن الإيمان يأمر بأنه لابد من إيصال الحق إلى صاحبه كاملاً ، جرياً على مبدأ العدل والإنصاف.

وهكذا فربما تصل دعوة الإسلام إلى منعطفٍ يتطلب فيه الإيمان أن نضحي بأنفسنا وأموالنا كلها من أجل إنجاح الدعوة الإسلامية، فاجتناب التقاعس أو الهروب في كل هذه المواطن، والاستمرار على الوفاء بمقتضيات الإيمان والإسلام، مهما كلّف الأمر من أبهظ الأثمان، هو الجهاد عينه .

وإذا أصبح شخص ما مجاهداً من أجل الإسلام على هذا النحو، صارت علاقته النفسية كلها مرتبطةً بالله ورسوله وأهل الإيمان، فهو لا يتخذ من أحدٍ سواهم وليجةً له، وأصل الكلمة : ولج يلج إذا دخل، من الولوج وهو الدخول، ويُطلق على كهف يستتر فيه المارة من مطرٍ وغيره «الولجة»، وجمعها أولاج وولجات، ومنها الوليجة بمعنى بطانة الرجل وصديقه الحميم المعتمد عليه .

وفي العالم الراهن إذا ما تبنى المرء أي هدفٍ أسمى وأوسع، فهو مطالب بالضرورة أن يكون وثيق الصلة بمركز هدفه، كامل الوفاء والولاء لقائده ، قوي الارتباط بإخوانه ومرافقيه في هذا الطريق، إن هناك نسبة من التلازم بين الشعور بالهدف وبين هذه الأشياء، وبدونها تكون دعوى الحياة الهادفة باطلةً كل البطلان .

وكذلك حين يختار المرء الدين في حياته بجدية وإخلاص، فسيحدث بعدئذٍ بالضرورة أن يصير الله ورسوله وأهل الإيمان وليجته وخاصته، وسيربط هو نفسه بهم ربطاً محكماً وشاملاً، فالله والرسول، والمؤمنون، بالنسبة إلى الشخص الذي يختار الدين بجديةٍ تامةٍ، يمثلون عناصر وحدةٍ واحدةٍ متماسكةٍ لا تقبل التجزئة أو التقسيم، وتزداد خطورة هذا الأمر إلى حدٍ بعيدٍ جداً، إذا نحن لاحظنا أن الممتحن لذلك هو الذي يعلم كل ما ظهر وما بطن، لا تخفى عليه خافية، والذي سوف يعامل كل شخصٍ باعتبار حقيقته وليس باعتبار سلوكه الظاهري!

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت وذهبت أجورها لكفرهم .

سِقَايَةَ الحَاجِّ: سقي الحجيج الماء .

كان المسلمون- في إبان نزول القرآن-مجتمعين حول رسول الله ﷺ بينما كان المشركون مجتمعين حول الكعبة، وحينئذٍ لم يكن رسول الله ﷺ قد أحيط بعد بتلك الأمجاد التاريخية التي نعرفها عنه اليوم، وإنما كان في أعين الناس بشراً من البشر، ومن

جانب آخر فقد كان المسجد الحرام رمزاً للعظمة والقداسة نتيجة تاريخ الألوف من السنين، ومن ثم كان المشركون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم خدام مركزٍ ديني مقدسٍ وعمّاره، وأما إذا صرفوا أنظارهم نحو المسلمين، فكان يبدو لهم، من خلال الظروف القائمة يومئذٍ، كما لو أن أناساً مغفّلين يندفعون وراء رجلٍ مجنون!! على أن ظن المشركين هذا لم يكن إلا باطلاً محضاً، حيث كان هؤلاء يمارسون خطأ بمقارنة الحقائق بالظواهر والأشكال.

إن سقاية زوّار المسجد الحرام، والقيام على تنظيفه وإنارته، وتحجيب الكعبة، وترميم فرش المسجد وجدرانه، كل ذلك أشياء عرضية، أنى لها أن تتساوى أو ترقى إلى درجة الإيمان الصادق وما يستتبعه من أعمالٍ ؛ إذْ يظفر المرء بالإيمان بالله فيأخذ العيش في همّ الآخرة، ويسلم حياته وبضاعته إلى الله تعالى، ويتخذ من الله الواحد كبيراً له رافضاً كل مظاهر الكبرياء الأخرى دونه!! كلاّ.. كلاّ .

الظافرون بالصدق في الحقيقة هم الذين يظفرون به على مستوى المعنى أو المضمون، ليس على مستوى الشكل والقالب الخارجي، والذين تمتد علاقتهم بالصدق إلى حد الكفاح والتضحية من أجله، دون أن تقف عند حد المظاهر السطحية والأعمال العرضية البحتة .

وللعلاقة بالله نوعان: إحداهما : عقيدة رسمية تقليديةٍ، يقوم فيها المرء ببعض الأعمال الظاهرية، ولكنه لا يضحي بنفسه وماله في سبيل الله - تعالى: أما العلاقة الثانية فهي: أن يكون المرء جاداً ومخلصاً في إيمانه لدرجة أنه لا يلبث أن يترك في سبيله كل شيءٍ دُعي إلى تركه، ويبذل من أجله كل ما طُولب ببذله حتى ولو كان حياته وما ملكت يمينه كلها، وإن هذا الصنف الثاني من عباد الله هم الذين سيُمنحون بعد مماتهم جوائز غاليةً وإنعامات رفيعةً عند الله سبحانه وتعالى !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ

ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ: اختاروه وأقاموا عليه.

اقْتَرَفْتُمُوهَا: اكتسبتموها .

كَسَادَهَا: بوارها بفوات أيام المواسم .

فَتَرَبَّصُوا: فانتظروا .

إن من أثمن الأشياء عند الناس – بل أثمنها وأغلاها إطلاقاً – هى : أسرهم، وعقارهم، ومصالحهم الاقتصادية، فهم يعدون هذه الأشياء ذات الأهمية القصوى، وبالتالي يفضلونها على كل شيء آخر سواها، ويبذلون قصارى جهدهم من أجل الحفاظ عليها، إن حياةً من هذا النوع هي حياة دنيوية بحتة، وإن رجلاً كهذا إنما يدرك ما يدرك في إطار هذه الدنيا المحدودة فحسب، إذْ ليس له في العالم الأبدي القادم بعد الموت من نصيبٍ .

أما الحياة الثانية فهى – على النقيض من الحياة الأولى تماماً – تتمثل في أنه يولي المرء الأهمية القصوى لله ولرسوله وللجهاد في سبيله، ويكون دوْماً مستعداً للتخلى عن كل شيء آخر من أجلهم، وهذه الحياة الثانية هى حياة العبودية لله حقاً، ولأمثال هؤلاء وحدهم، ستفتح أبواب الجنان الأبدية في الآخرة .

إن ثمة حياة تقوم على أساسٍ من العلاقات والمصالح الدنيوية، وهناك حياة أخرى تقوم على أساس الإيمان، وعلى أيٍ من هذين الأساسين أقام المرء حياته، فإنما يكون ذلك دوْماً على حساب الأشياء الأخرى دونه، حيث يتعين عليه أن يتصل ببعض

الناس وينقطع عن بعضهم الآخر، ويركز اهتمامه كله في استبقاء بعض الأشياء وتنميتها، ويتخذ موقف اللامبالاة من بقاء بعض الأشياء الأخرى ونموّها، وأن تكون بعض أنواع الخسائر غير محتملة لديه لدرجة أنه يخاطر بحياته وينفق أحسن ما عنده من مالٍ ومتاع في تفاديها واجتنابها، بينما هو لا يقلق ولا يتأسف أي أسفٍ على خسائر من نوعٍ آخر يراها تقع أمام عينه لكونها غير ذات صلةٍ بالأساس الذي أقام عليه حياته .

وإن الدنيا يحصل عليها دوماً أولئك الذين يُسخِّرون من أجلها كل ما عندهم من رخيصٍ وغالٍ، ويركبون كل صعبٍ وذلولٍ، وهكذا فإن الآخرة لا يظفر بها كذلك سوى أولئك الذين يُضحُّون من أجلها بكل الأشياء الأخرى .

إن الترجيح أو الإيثار لأمر متناهٍ في الخطورة، حتى إنه ليكاد يكون هو الحد الفاصل بين إيمان المرء وكفره، وكما أن الكفار الصريحين أو المكشوفين ليس لهم النجاح والفلاح في عالم الله هذا، فكذلك لن يُكتب النجاح هنا أيضاً لأولئك الذين يدّعون الإيمان، ولكن إذا حزب الأمر، واكفهّر الجو، فلا يلبثون أن يفضلوا الدنيا على الآخرة، ومهما أحسن مدّعو الإيمان كهؤلاء الظن بأنفسهم، فإنهم سيعلمون أي مصير ينتظرهم حين يُظهر الله أمره وقضاءه فيهم !

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

بِمَا رَحُبَتْ: مع رحبها وسعتها .

سَكِينَتَهُ: طمأنينته وأمنته أو رحمته .

الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ: شيء قذر أو خبيث لفساد بواطنهم .

خِفْتُمْ عَيْلَةً: فقرا وفاقة بانقطاع تجارتهم عنكم .

إن غلبة المسلمين هي نتيجة تابعة لمجازاة الكفار على كفرهم، ولكن كفر الكافرين إنما يثبت ويتحقق قياساً على إسلام المسلمين، فلو أن المسلمين فقدوا إسلاميتهم، فإلى أي شيءٍ سيقاس إذن كفر الكافرين، وعلى أي أساسٍ سيعامل الله - سبحانه وتعالى - تلك المعاملة الثنائية الفاصلة التي ستكون بالنسبة إلى أحد الفريقين تكرمةً وإنعاماً، وبالنسبة إلى الفريق الآخر عذاباً وتنكيلاً ؟!

لقد استطاع المسلمون أن يقهروا قريشاً بنجاحٍ واقتدار ويدخلوا مكة فاتحين، وذلك في شهر رمضان سنة ٨ من الهجرة، ولكن في شهر شوال التالي من السنة ذاتها، لم يلبثوا أن هُزموا في بداية المعركة مع قبيلتي هوازن وثقيف الوثنيتين، على حين أن عدد المسلمين عند فتح مكة كان يبلغ عشرة آلافٍ، وعند الالتحام بهوازن وثقيف كان اثنى عشر ألفاً !!

وكان السبب في ذلك أن المسلمين عند لقائهم مع قريش كانوا قد خرجوا اعتماداً على الله تعالى وحده، ولكن عند خروجهم لمواجهة هوازن وثقيف أصابهم الغرور القائل: إننا فاتحو مكة، ويضم معسكرنا اليوم اثني عشر ألفاً، إذًا فلا أحد يستطيع الآن أن يهزمنا!! ولقد كان النصر حليفهم حين كانت ثقتهم بالله وحده، ولما وضعوا الثقة في أنفسهم باؤوا بالفشل والهزيمة ..!!

إن الاعتماد على الذات يبعث في داخل المرء مشاعر العجب والخيلاء، مما يجرّه إلى عدم الاكتراث للحقائق الخارجية، فهو يتهاون في التمسك بالنظام، وهو لفرط ثقته

بذاته، يأخذ في اتخاذ خطواتٍ غير واقعيةٍ، مما لا يؤدي في عالم الأسباب هذا إلى شيءٍ سوى الفشل والهزيمة ، وعلى العكس من ذلك فإن الثقة بالله ثقة بأكبر قوة في هذا الكون، وهي توقظ في داخل المرء مشاعر التواضع، مما يجعله واقعياً إلى أقصى الحدود، وليس من شك في أن الواقعية هي أصل كل نجاحٍ على اختلاف أنواعه .

وعندما نزل الحكم بمنع دخول المشركين في منطقة الحرم، سرى القلق في نفوس المسلمين، فإن الجزيرة العربية، لكونها بلداً غير زراعي، كان اقتصادها يعتمد على التجارة، والتجارة تقوم دوْماً على أساس العلاقات المتبادلة ؛ فخيُّل إلى المسلمين أنه إذا انقطع مجيء المشركين إلى الحرم، انقطعت كل الصلات التجارية القائمة معهم، لكنهم لم يتفطنوا إلى إمكان أن يتحول مشركو اليوم إلى المسلمين غداً، وقد تحقق هذا الإمكان فعلاً، فبدخول القبائل العربية في دين الإسلام أفواجاً، استعادت النشاطات التجارية في الجزيرة حيويتها من جديد، وأيضاً فقد نتج عن هذه التضحية البدائية أن أصبح الإسلام آخر الأمر ديناً دولياً، والأبواب الاقتصادية التي بدت وهي تنغلق على المستوى المحلي، ها هي ذي قد انفتحت على المستوى الدولي العالمي !

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يُعْطُوا الجِزْيَةَ: الخراج المقدر على رؤوسهم .

عَن يَدٍ: عن انقياد أو عن قهر وقوة .

وَهُمْ صَاغِرُونَ: منقادون أذلاء لحكم الإسلام.

يُضَاهِئُونَ: يشابهون في الكفر والشناعة .

أَنَّى يُؤْفَكُونَ: كيف يصرفون عن الحق بعد سطوعه.

أَحْبَارَهُمْ: علماء اليهود .

وَرُهْبَانَهُمْ: متنسكي النصارى .

أَرْبَاباً: أطاعوهم كما يطاع الرب .

إن من آثار الإيمان - إذا كان حياً - أن المرء ينسب كل حادثٍ أو واقعة يمر بها إلى الله - سبحانه وتعالى، فهو لا يكاد يفهم شيئاً ما إلا إذا حكم عليه بالقياس إلى الله تعالى، فهو لا يدرك رائحة الورد مالم يدرك فيها عبير الله، وهو لا يكتشف الشمس ما لم يتوصل إلى موجدها وكل عظمةٍ وكبرياء، حيثما ظهرت، تبدو له هبة الله، وكل خيرٍ أو حسنةٍ، أينما وُجد، يذكره بإحسان الله وكرمه ، وعلى العكس من ذلك فلو أن علاقة المرء بالله ضعفت وانحطت إلى درجة العقيدة الوهمية، لتحول الله في وعيه وشعوره الحي إلى شيء مجهولٍ، وبالتالي فهو يبدأ يقيس الله على أشياء الدنيا المرئية المحسوسة، وهذا الصنف الثاني من الناس ينتهي به الأمر إلى أن يأخذ في النظر إلى الخالق من منظار تلك الأشياء الدنيوية التي يعرفها، وهو بذلك لا يلبث أن يستنزل الخالق إلى مستوى المخلوق .

وقد وصل اليهود والنصارى إلى هذا الدرك ذاته في زمن فسادهم وانحطاطهم، حيث انحصر الله عندهم – الآن - في إطار المعتقدات الوهمية والتصورات الخرافية، وبالتالي أخذوا يرفعون أحبارهم ورهبانهم «المنظورين أو المرئيين» إلى الدرجة التي لا يستحقها إلا الله رب العالمين وعندما رأى هؤلاء أن الشعوب اليونانية والرومانية قد

اتخذت من الشمس إلهاً، وافترضت لها ابناً، بدا لهم أن هذا هو اللقب الأسمى الذي ينبغي أن يخلعوه على أكابرهم أيضاً، فتناولوا ما ورد في كتبهم السماوية من كلمتي «الأب»، و«الابن» بتأويل مزعومٍ باطلٍ، وشرعوا ينادون الله بـ «الأب» ورسولهم بـ «الابن»، على حين أن الله واحد أحد، فرد صمد، وهو منزه عن كل تشبيهٍ ومماثلةٍ، وهو وحده المستحق لكل أنواع التعظيم والعبادة بلا شريكٍ .. لقد نال بنو إسرائيل من رسول الله ﷺ واعتدوا عليه كما نال منه المشركون واعتدوا عليه، غير أن كلاً من الفريقين عُومل معاملةً خاصةً، فبينما تم تخيير المشركين بين الإسلام أو القتال، أمر بالنسبة إلى أهل الكتاب أن يتركوا وشأنهم فيما لو كانوا راضين بإعطاء الجزية، أي بقبول الطاعة السياسية .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لِيُظْهِرَهُ: ليعليه .

لقد أعلن الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات عن قراره الدائم بأنه سيحافظ على دينه إلى يوم القيامة ؛ فلن يحدث الآن، كما حدث فيما مضى من القرون، أن تعبث أهواء البشر بدين الله، فيُفقدوه أصالته ونقاءه بإضافاتهم، أو تنجح قوة ما في القضاء عليه ..

إن الله - سبحانه وتعالى - عندما أسكن الإنسان على وجه الأرض، زوّده بهدايته، ولكن الناس لم يلبثوا أن أصيبوا بالغفلة وحب الدنيا في العصور المتأخرة، فتناولوا كلمات الله بالتحريف والتبديل تبعاً لأهوائهم، فكل ما كان يشتهيه الناس بأنفسهم لأنفسهم نسبوه إلى الله، وضموه إلى الكتاب الإلهي .

ثم أرسل الله نبياً آخر، لكي يطهر دين الله من الإضافات البشرية ويقدّمه في صورته

الأصلية النقية الناصعة، غير أن الناس لم يلبثوا أن غيّروه هو الآخر في الأزمان التالية، وظلت هذه الظاهرة تتكرر مرة بعد أخرى، إلى أن قرر الله نهائياً أن يرسل آخر رسله، ويخلق عن طريقه ظروفاً وأحوالاً تمكن الدين الإلهي من الاحتفاظ بهيئته الأصلية الأولى إلى الأبد، وقد تحقق هذا الإنجاز العظيم من تاريخ الرسالات النبوية على يد النبي العربي - صلوات الله وسلامه عليه - وعند بعثة رسول الله ﷺ كانت شعوب العالم تؤمن بشتى الأديان المزعومة، فكان مشركو العرب يؤمنون بدينٍ يسمونه ((دين إبراهيم))، وكان لدى اليهود دين يطلقون عليه ((دين موسى))، وكان النصارى يؤمنون بدينٍ سموه ((دين المسيح)) .. إلخ ، وقد كانت كل هذه الأديان طبعاتٍ أو نسخاً مصطنعةً مزوّرةً لدين الله، والتي كانوا يصفونها - كذباً وافتراءً - بالدين المنزل من عند الله تعالى، وقد رفض الله تعالى كل هذه الأديان بحذافيرها، ومكّن لدين النبي العربي باعتباره النسخة الوحيدة المعتمدة لدين الحق إلى قيام الساعة .

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يطرأ على متنه السماوي أي تغيير منذ نزوله حتى اليوم، بينما تعرضت الأديان الأخرى كلها للتحريفات البشرية، وبالتالي فقدت صورتها الأصلية الأولى، والإسلام هو الدين الوحيد، من بين سائر الأديان الأخرى كلها فقد صارت عاريةً من المعقولية التاريخية، والإسلام هو الدين الوحيد الذي توجد أحكامه وتعاليمه كلها في لغةٍ حيةٍ، في حين أن الكتب الأساسية الأولى لسائر الأديان الذي يعتبر معقولاً وموثوقاً به من الناحية التاريخية ، أما الأخرى، تُوجد في لغاتٍ، باتت في العالم اليوم ميتةً، إن نور الدين الذي أضاءه الله تعالى في صورة الإسلام، لم يقل ضياؤه قط، ولا تمكن أحد من إطفائه، فهو لا يزال مشرقاً ساطعاً بين يدي العالم، ومازال محتفظاً بسموه المبدئي فوق كل دينٍ آخر سواه!

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا

يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

إن الطريقة المشروعة لأخذ مال الغير هي أن يُؤخذ بالحق ؛ يعني أن يحصل المرء على مال غيره عوضاً عن أية خدمةٍ واقعيةٍ يقدمها إليه، أو منفعةٍ حقيقية ينفعه بها، أما أخذ مال الغير بالباطل فهو ما يتم الحصول عليه عن طريق الغش والخديعة والاحتيال، وهذه الطريقة الثانية محرمة وجالبة للغضب الإلهي .

وأكل مال الآخرين بالباطل هو ما يُطلق عليه اليوم ((الاستغلال)) ، وقد كان رؤساء اليهود وأكابرهم الدينيون يستغلون أتباعهم الجهلاء استغلالاً دينياً مكثفاً، حيث كانوا قد نشروا بين العوام قصصاً كاذبةً من شأنها أن تدفعهم إلى تعليق آمالٍ غير عاديةٍ على الشيوخ والصالحين، وبالتالي اعتبار هؤلاء القصاصين أيضاً على جانبٍ عظيمٍ من الصلاح والورع كسلفهم، فيختلفوا إليهم طلباً للدعوات، والتماس البركات ويقدموا إليهم ضروب الهدايا والنذور، وقد كانوا يتسلّمون من الناس أموالاً طائلةً باسم خدمة الدين، بينما الدين الذي كانوا ينشرون تعاليمه بين الناس كان ديناً مختلقاً وضعوه من عند أنفسهم، ولم يكن في حقيقته ديناً منزلاً من عند الله تعالى، وكانوا يتلقون مبالغ ضخمةً من التبرعات بعنوان ((إحياء الملة اليهودية))، في حين أنهم لم يكونوا يعنون بعنوان الإحياء الملّي هذا سوى إلهاء الجماهير بالأماني والأحلام اللذيذة، حتى يستطيعوا استخدامها لصالح قيادتهم، وكانوا يبيعون للناس تعاويذ ورقى زاعمين لهم أنها تنطوي على أسرارٍ وفوائد مدهشةٍ على حين أنهم لم يكونوا يعتمدون على هذه التعاويذ والرقي في حل قضاياهم الذاتية الحساسة .

إن المال الذي يقع في يد المرء لا يجوز صرفه إلا في وجهين : أولاً : أن ينفق لتغطية حاجاته الواقعية . ثانياً: أن يعطي ما زاد عن حاجته في سبيل الله، وأما ما عدا ذلك من

وجوه التصرف في المال فإنها مؤدية بالمرء إلى الشقاء والعذاب، سواء كان يبذر ماله، أو يكنزه.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

الدِّينُ القَيِّمُ: الدين المستقيم دين ابراهيم ﷺ.

النَّسِيءُ: تأخير حرمة شهر إلى آخر.

لِّيُوَاطِئُوا: ليوافقوا.

إن الأحكام الشرعية يمكن أن يقوم بها كل شخصٍ على حدة، ولكن المطلوب عند الله - تعالى - أن يؤديها أهل الإيمان مجتمعين، حتى تتولد فيهم روح الاجتماع والتضامن، وللوصول إلى هذا الهدف ذاته تم تعيين أوقاتٍ وتواريخ محددةٍ لتأدية مختلف العبادات، ولو أن هذه التواريخ حُدّدت باعتبار التقويم الشمسي، لجاءت مرتبةً ترتيباً روتينياً، بحيث يحل شهر الصيام أو موسم الحج مثلاً في فصلٍ واحدٍ معين بصفةٍ دائمةٍ، غير أن الروتين أو الرتابة تولد الجمود، وبالتطور والتحول تستيقظ قوى عملية جديدة، ومن ثم فقد أُخذ بالتقويم الطبيعي التابع لمنازل القمر فيما يتصل بالنظام الاجتماعي لتأدية الأحكام الشرعية.

وبسبب الأخذ بهذه القاعدة تختلف أيام الحج من فصلٍ إلى فصل، حيث تقع تارةً في الشتاء وتارةً في الصيف. وفي قديم الزمان، إذْ كان اجتماع الحج يتمتع بأهميةٍ تجاريةٍ عظيمةٍ جداً، فقد اعتبر حلول موسمه في فصولٍ مختلفةٍ مُخلاً بالنشاط التجاري، وبما أن العرب في الجاهلية لم تكن المصالح الدينية أكثر أهمية لديهم من المصالح الدينوية، فلذلك فكروا في أن يختاروا طريقةً تقع معها أيام الحج دوماً في فصلٍ واحدٍ ملائمٍ لهم، وهناك تعرفوا على حساب الكبس - الرائج لدى اليهود والنصارى -وقد أعجبوا به لكونه يتفق تمام الاتفاق مع أهوائهم، فلم يلبثوا أن تناولوه بالتطبيق في مجتمعهم كذلك، وهو يعني تأخير الشهور بعضها عن بعضٍ، كجعل المحرم مثلاً في موضع صفر والعكس.

ومن خلال طريقة النسيء هذه استفاد العرب فائدتين: تتمثل إحداهما: في التوفيق أو الملاءمة بين موسم الحج وبين المقتضيات التجارية. أما الفائدة الثانية: فهي استباحة القتال في الشهر الحرام بجعل شهرٍ غير محرمٍ مكانه. ومع أن العرب كانوا على علمٍ بسنة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلا أن سيطرة المقاصد التجارية والمقتضيات القبلية على أذهانهم، جعلتهم يستحسنون طريقة النسيء على سنة إبراهيم، ويختارونها لتنظيم شئونهم ومعاملاتهم الاجتماعية.

وقوله: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ يعني أن الكفار يتحدون على عدم الخوف من الله، فلتتحدوا أنتم على خوف الله وتقواه، وأنهم يرتبط بعضهم ببعض للوصول إلى الأهداف السلبية، فلترتبطوا مثلهم للوصول إلى الأهداف الإيجابية، وأنهم يصيرون قلباً واحداً لأجل الدنيا، فلتكونوا أنتم قلباً واحداً لأجل الآخرة!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ

إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

انفِرُوا: اخرجوا غزاة (تبوك).

اثَّاقَلْتُمْ: تباطأتم وأخلدتم.

فِي الغَارِ: غار جبل ثور قرب مكة.

لِصَاحِبِهِ: أبي بكر الصديق ﷺ.

نزلت هذه الآيات في غزوة تبوك، التي وقعت في العام التاسع من الهجرة، ومن خلال التصرفات التي ظهرت من قِبل منافقي المدينة إذْ ذاك، يتبين لنا بوضوحٍ أي موقفٍ سلوكي يتبناه ضعفاء الإيمان في المواقع الخطيرة الحاسمة، إذا ما اندسُّوا إلى المجتمع الإسلامي!؟

وواقع الأمر أن العلاقة بالإسلام لها درجتان: إحداهما: أن يرتبط ولاء المرء كله بالإسلام وحده، وأن يصبح هو قضية موتٍ أو حياةٍ بالنسبة إليه. أما الدرجة الثانية فهي: أن يكون إقرار المرء بالإسلام إقراراً ظاهرياً فقط، بينما تكون رغباته واهتماماته الحقيقية متعلقةً بأي شيءٍ آخر سواه..

إن الصنف الأول من الناس هو المؤمن الصادق الإيمان، أما الصنف الأخير فهو الذي أطلق عليه القرآن مصطلح «المنافق» ومن شأن المؤمن أنه لا يزال ثابتاً على الإسلام حتى في لحظات الكفاح والتضحية المريرة، تماماً كما يكون متمسكاً به في الأحوال العادية، وعلى النقيض من ذلك، فإن المنافق تراه متقدماً جداً في ممارسة

التدين الظاهري، أو التظاهر بإسلام لا يكلف عناءً أو مشقةً . . ولكنه لا يلبث أن يتراجع إلى الوراء ويغيب عن الأنظار إذا كان الوضع يتطلب الوفاء بمقتضيات الإسلام على مستوى الكفاح والتضحية .

والسبب في هذا الفارق هو أن المؤمن يتطلع إلى الآخرة، بينما يتطلع المنافق إلى الدنيا، والمؤمن لا يرى أية قيمةٍ للدنيا وما فيها بإزاء نعيم الآخرة الأبدى؛ ولذا فإذا حال شيء من أشياء هذه الدنيا دون طريقه، ضرب عنه صفحاً، وتقدم بخطًا ثابتة نحو الدين . أما المنافق فهو يفضل إسلاماً يمنحه شرف «الإسلامية» من غير إخلال بدنياه، ومن ثم فإذا ما ووجه بوضع يُدعى فيه إلى التمسك بالإسلام على حساب الدنيا، مال إلى الدنيا، ولو ترتب على ذلك انفلات حبل الإسلام من يده !!

ومع أن لحظات الصراع بين الإسلام وبين غير الإسلام، التي تطرأ في هذا العالم، تبدوا للناظرين صراعاً يدور بين طائفتين من البشر، إلا أنه من حيث حقيقته، يكون أمراً إلهياً، ففي مثل هذه المواقع كلها يكون الله تعالى واقفاً إلى جانب الإسلام، وإنما يتم إحداث واقعة كهذه في مظهر الأسباب، لكي يُمنح شرف خدمة الدين أولئك الأفراد وحدهم، الذين كانوا قد فوضوا أمر أنفسهم كله إلى الله سبحانه وتعالى!

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

خِفَافاً وَثِقَالاً: على أية حال كنتم .

عَرَضاً قَرِيباً: مغنما سهل المأخذ .

وَسَفَراً قَاصِداً: متوسطا بين القريب والبعيد .

الشُّقَّةُ: المسافة التي تقطع بمشقة .

من بين أصناف المنافقين في المدينة، كان هناك صنف يضم مسلمين ضعفاء العقيدة والإيمان، وقد أقرَّ هؤلاء بالإسلام باعتباره الدين الحق، وكانوا فى حياتهم العملية، يقومون بتنفيذ كل ما لا يتعارض مع مصالحهم الدنيوية من تعاليم الإسلام وأحكام الشريعة وأما إذا اصطدم مقتضى الإسلام ببعض مقتضياتهم الدنيوية، آثروا الأخير على الأول وقد كان المؤمن - في مجتمع المدينة يومذاك - لقباً يطلق على شخصٍ يتمسك بالإسلام على مستوى التضحية، وبالمقابل كان المنافق كل من قعدت به همته عن الذهاب إلى حد التضحية من أجل الإسلام !!

وقضية «تبوك» صورة رمزية ؛ تدلنا على من هو مؤمن عند الله ممن هو منافق عنده تعالى ؛ إذْ كان النفير آنذاك لا للزحف إلى أية قبيلة محدودة العدد والعدة، بل إلى قوةٍ عسكرية جبارةٍ ومنظمة كالروم، وكان الوقت صيفاً شديد الحرارة، وكانت الثمار والزروع على وشك النضج والحصاد، والطريق إلى مشارف الشام النائية جد عسيرٍ مليء بضروبٍ شتى من المكاره والعقبات، ثم إن المسلمين لم يكونوا جميعاً على وضعٍ واحدٍ من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، ففيهم أصحاب سعةٍ بإمكانهم أن يعدّوا لهذا السفر وما وراءه العدة اللازمة، وفيهم مُعْدمون لا يملكون من مؤونة السفر ولا من عتاد الحرب شيئاً، وفيهم أحرار يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون، وفيهم مغلوبون على أمرهم ؛ متورطون في ظروفٍ لا تسمح لهم بأن يفعلوا ما يريدون .. إلخ .

على أن الأمر الإلهي صدر عاماً بأن يخرج الجميع على أية حالٍ، ولا يقيم أحد لأي عذرٍ وزناً، والسبب في ذلك هو أن العبرة في الميزان الإلهي لا تكون بالكمية أو المقدار، بل بأن يقدم المرء كل ما عنده من رخيصٍ أو غالٍ، وهذا فى الحقيقة، هو ثمن الجنة، مهما كان يبدو للناظرين متواضعاً ضئيلاً، أو قليل المقدار .

وآية المنافق الخاصة أنه إذا رأى أن هناك شرفاً لخدمة الإسلام عظيماً يمكنه الحصول

عليه من خلال سفرٍ ليس بذي عناءٍ أو مشقةٍ، استعد له في الحال، وأما إذا كان السفر شاقاً، يخلو من أية إمكانية قطعية ظاهرة لإحراز النجاح أو المجد والظهور، لم يجد في نفسه رغبةً في القيام بمهمة دينية كهذه.

ولو أن مهمةً دينيةً حقيقيةً كانت على الأبواب، والمرء يحاول الابتعاد عنها بناءً على بعض الأعذار، فإن ذلك لأوضح دليلٍ على أن المرء لم يعط لدين الله في خريطة حياته المقام الأعلى؛ إذْ لا يعني تقديم العذر سوى أن هناك شيئاً آخر هو أكثر أهمية وأعظم قيمة لدى المرء من الهدف المطروح، ومن الواضح أن اعتذاراً كهذا من شأنه أن يلغي مصداقية المرء في عين الله، ناهيك أن يجعله في عداد المقبولين المقربين !! والنفاق - في الحقيقة - هو أن تحتفل بالعباد مع عدم احتفالك بالله، ولو أن المرء علم قدرة الله علم اليقين، لما سلك هذا المسلك الشائن أبداً !

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

انبِعَاثَهُمْ: نهوضهم للخروج معكم.

فَثَبَّطَهُمْ: فحبسهم وعوقهم عن الخروج معكم.

المنافق هو الذي يكون في مقدمة الصفوف فيما يتصل بجوانب الإسلام النافعة أو غير الضارة، وأما إذا رأى مصالحه الذاتية تتعرض لخطرٍ ما، نكص على عقبيه، والشيء الذي يتذرع به أمثال هؤلاء الضعفاء ومرضى القلوب، في مناسباتٍ كهذه، هو

الاعتذار، حيث إنهم يحاولون ستر بطالتهم وهروبهم من الواجب بالتبريرات الجميلة الخلابة، ولو أن إمام المسلمين قبل أعذارهم، نظراً لبعض المصالح الاجتماعية، لطاروا فرحاً وسروراً بأن محاولتهم لإخفاء قصورهم وبطالتهم في ستارٍ من الألفاظ قد تكللت بالنجاح!، غير أنهم ينسون أنهم لا يتعاملون أصلاً مع أي إنسانٍ، بل مع الله - عز وجل - وهو يعلم جيداً بحقيقة كل فرد من البشر، وربما يكشف الله عن أسرار أمثال هؤلاء في هذه الدنيا قبل الآخرة، حيث ستُكشف سرائر الناس ومكنونات ضمائرهم كافةً !!

لو أن إحدى بناتك اقترب موعد زواجها، أو أصيب أحد بناتك بمرضٍ خطيرٍ، فإنك لا تحتفظ عندئذٍ بنفسك أو بثروتك دونهم؛ إذْ ليست حياتك وثروتك إلا لكي تضحي بهما في مناسبة كهذه، حتى توفر السعادة والهناء لأفلاذ كبدك، إن وقتاً كهذا، بالنسبة لأحد الآباء، يكون وقت المبادرة إلى التضحية، وليست وقت التماس المعاذير والتعللات .

وهكذا هو أمر الدين، فالشخص الذي يكون جاداً ومخلصاً في دينه، لن ينتحل الأعذار أبداً فيما إذا دُعي يوماً إلى التضحية من أجل الدين، فالعواطف الإيمانية السامية التي كانت تجيش وتضطرب في صدره، كأنما كانت تنتظر هذه الفرصة، إذْ يتمكن فيها من أن يقيم الدليل على صدق ولائه وكمال وفائه لله من خلال التضحية بروحه وبكل ما ملكت يداه، فما الذي سيدفعه إذن إلى انتحال الأعذار بعد أن سنحت له هذه الفرصة الطيبة التي طال انتظاره لها!؟

إن المؤمن هو إنسان ممتلئ الفؤاد بخوف الله، وعاطفة الخوف أقوى العواطف البشرية إطلاقاً، فهي لا تلبث أن تتغلب وتسيطر على سائر العواطف والمشاعر الأخرى، ويقف المرء تجاه الشيء الذي تربطه به علاقة الخوف والحذر، موقفاً متناهياً في الجدية والواقعية، ومن ثم فإذا أصبح شخص ما مؤمناً بالله على مستوى الخوف، لم يصعب عليه أن يدرك أي نوعٍ من رد الفعل ينبغي عليه أن يظهره في أية مناسبة، وإنما

يقع المرء فريسة الارتياب والتردد بشأن التضحية من أجل الآخرة لكون منفعتها غير مائلةٍ للعيان، غير أن تمزيق حجاب الشك والارتياب هذا هو الامتحان الحقيقي المفروض على المرء في هذا العالم !

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

خَبَالاً: شرا وفسادا، أو عجزا وجبنا.

وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ: لأسرعوا بينكم بالنمائم لإفساد ذات البين .

يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ: يطلبون لكم ما تفتنون به .

وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ: دبروا لك الحيل والمكائد .

إن اعترافك بخطئك يعني التسليم بصغر شأنك إزاء غيرك، وهذا النوع من الاعتراف أصعب عملٍ على أي إنسانٍ، ومن ثم فلا يزال المرء يحاول دوماً أن يقيم الدليل على صحة موقفه بأي وجهٍ من الوجوه، وذلك هو ديدن المنافقين في كل زمانٍ ومكانٍ، حيث إنهم لا يزالون يتحينون الفرص للطعن في المؤمنين المخلصين، ليتمكنوا من إثبات أنهم أكثر منهم رشداً، وأسد منهم رأياً، وأهدى سبيلاً، بحسب زعمهم .

وقد كانت جهود المنافقين في المدينة كلها موجهةً دائماً إلى هذا الغرض نفسه. ولنتذكر - مثلاً - واقعة هزيمة المسلمين في غزوة أحد، كيف اتخذ منها المنافقون القاعدون في المدينة - أي الذين لم يشتركوا في الغزوة فعلاً - مثار الهزء والسخرية من رسول الله ﷺ فأخذوا في الدعاية ضده قائلين: إنه لا تتوفر لديه الخبرة بشئون الحرب، وإنما كان إقدامه هذا مغامرةً طائشةً مصدرها التهور، وبالتالي فقد أورد شبابنا، بقيادته الخاطئة، موارد الهلاك والدمار دون جدوى !!

إن أفراداً قلائل جداً من البشر يستطيعون تحليل الأمور بدقةٍ وعمقٍ، وأكثر الناس يكون عادةً سطحي التفكير، سريعي التأثر بأي كلامٍ يُوجه إليهم في ثوب قشيبٍ أنيقٍ، وبناءً على ذلك، فإن تواجد المنافقين بين ظهراني جماعةٍ مسلمةٍ، يتسبب دوماً في إحداث الضعف والخلل في صفوف تلك الجماعة.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ائْذَن لِّي: في التخلف عن الجهاد.

وَلاَ تَفْتِنِّي: لا توقعني في الإثم بالمخالفة لأمرك.

هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا: ما تنتظرون بنا.

الْحُسْنَيَيْنِ: النصرة أو الشهادة.

عندما أُعلن بالنفير العام لغزوة تبوك، جاء إلى رسول الله ﷺ رجل من منافقي المدينة يُدعى ((الجد بن قيس))، فقال معتذراً: اعفني من هذه الغزوة، لأنها بلاد الروم، وإني أخشى إن رأيت هناك نساء بني الأصفر - الروم - أن أُفتن؛ غير أن التقدم بالمعذرة في مثل هذه المواقع هو سقوط في الفتنة، ففي المواقع المصيرية الحاسمة ينبغي أن تضطرم في نفس المرء عاطفة التفاني والفداء لأجل الدين، وليس الميل إلى التخلف والقعود بافتعال الأعذار والتعللات، ومما يزيد الأمر سوءاً أو شناعةً أن يُصبغ عذر كهذا بصبغةٍ دينية وأخلاقية، حيث إنه إضافة المكر والخداع إلى جانب الفرار من الواجب.

وإن هذا النوع من المزاج إنما يتولد في داخل المرء لكونه أكثر حباً وإيثاراً لدنياه منه للآخرة، وفي المواقف الخطيرة يمتنع أمثال هؤلاء عن التقدم في سبيل الدين، ثم إذا رأوا أتباع الحق المخلصين يتعرضون لبعض الخسائر أو النكبات، بسبب تدينهم، غمرتهم موجة من الفرح قائلين: إننا كنا موفّقين حقاً؛ إذْ أخذنا الحذر والاحتياط! وعلى العكس من ذلك فلو أن أتباع الحق المخلصين صمدوا في مواجهة الأخطار، وظلوا يغالبونها حتى يغلبوها بنجاح، امتلأت قلوب هؤلاء حزناً واستياءً؛ لأن واقعة كهذه تدل دلالةً صارخةً على أن الموقف الذي تبنوه كان خاطئاً كل الخطأ.

إن الفشل أو الإخفاق كلمة لا مدلول لها بالنسبة إلى أهل الإيمان الصادقين في هذا العالم، فإن نجاحهم يكمن في رضا الله عنهم، وذلك لما هم يتمتعون به في كل الظروف والأحوال، وإن أصيب المؤمن بمصيبةٍ ما، ازداد قلبه بذلك خشوعاً وإنابةً إلى الله، وإن أتيحت له راحة ما، استيقظت في نفسه مشاعر الشكر والامتنان، مما يؤهله للمزيد من عنايات الله..

وقوله ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ يبدو كأنه من جملة كلام المؤمنين، غير أنه في الحقيقة من قبل الله تعالى، فالله - سبحانه وتعالى - يقول لهؤلاء في أسلوبِ تهديد: إنكم - يا معشر المنافقين - تنتظرون لأهل الحق الهلاك والدمار، في حين أن الله قدر لهم النجاح الأبدي، وأما مصيركم المحتوم فهو أن يُقذف بكم في هاوية الخزي والعذاب الأبديين بعد إقامة البرهان الجلي على جرائمكم الشنيعة!!

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ: تخرج أرواحهم .

قَوْمٌ يَفْرَقُونَ: يخافون منكم فينافقون تقية .

مَلْجَأً: حصنا ومعقلا يلجؤون إليه .

مَغَارَاتٍ: غيرانا في الجبال يختفون فيها .

مُدَّخَلاً: سربا في الأرض يتجحرون فيه .

يَجْمَحُونَ: يسرعون في الدخول إليه .

لقد حظي الإسلام، عقب دخوله إلى المدينة، بقبولٍ عامٍ وانتشارٍ واسعٍ بين سكانها، وقد كان أكثر هؤلاء آمنوا به عن صدقٍ وإخلاصٍ، باستثناء عددٍ منهم تظاهر باعتناق الإسلام مجاراةً للجو السائد، غير أنه كان خلْواً من ذلك الخضوع الداخلي والاستسلام النفسي الذي ينتج عن الإيمان الحقيقي والعلاقة الصادقة بالله تعالى، وهؤلاء هم الذين يُعرفون بـ ((المنافقين)) .

ومعظم هؤلاء المنافقين كانوا من أثرياء المدينة، وقد كان ثراؤهم هذا هو السبب الرئيسي لنفاقهم، فالشخص الذي لا يملك شيئاً ليفقده، ربما يكون أسرع استجابةً لنداء الإسلام الذي يُضطر المؤمن به إلى أن يفقد ويخسر كل ما يملكه، وأما الذين يملكون مقداراً - قل أو كثر - من مال وضياعٍ، فعادةً ما يصابون بالنفعية، وقد يقومون بتنفيذ أحكام الإسلام اليسيرة الغير المنطويةِ على ضررٍ أو كبير عناءٍ بأي وجهٍ من الوجوه، ولكنهم لا يستطيعون إرغام أنفسهم على الوفاء بتلك المقتضيات الإسلامية التي تتضمن خسران الروح والمال، والتي تفرض على المؤمن أن يثبت إيمانه على مستوى التضحية والفداء !!

على أن تخلفك عن الفداء والتضحية لأجل الإسلام يجعل - حتى عبادتك - غير ذات قيمةٍ، إن العبادة التي تُمارس داخل جدران المسجد لها صلة جد عميقةٍ بالعبادة المطلوبة خارج المسجد، فلو أن حياة المرء خارج المسجد، ستكون هي الأخرى خاليةً من التدين الحقيقي، فلا ريب أن حياته داخل المسجد، كانت خاليةً من التدين الحقيقي، وواضح أن العمل الفارغ عن الروح لا ولن يُقَوَّم عند الله بثمنٍ ما، وإنما يتقبل الله العمل الصادق وليس العمل الكاذب .

ولطالما ينظر عامة الناس إلى شخصٍ نال من زخارف الدنيا وثروتها حظاً وافراً، ويحيط به جمع من الأعوان والأصدقاء يطوفون حوله صباح مساء، ينظرون إليه نظرةً ملؤها الغبطة والإعجاب والإكبار، ولكن الحقيقة هي أن أمثال هؤلاء هم أتعس خلق الله، وأسوأهم حظاً في الدنيا والآخرة؛ إذْ ينتهي بهم الأمر عادةً إلى أن يصير المال والجاه عائقاً لا يطيقون معه أن يتقدموا نحو دين الله بالكفاية المطلوبة، فلا يزالون في غفلةٍ وشغلٍ عن الله، بما يستمتعون به من مالٍ وجاهٍ، حتى يأتي الموت، ويفصلهم عن مالهم وجاههم بدون رحمةٍ ولا شفقةٍ !

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

يَلْمِزُكَ: يعيبك ويطعن عليك .

حَسْبُنَا الله: كافينا فضل الله وقسمته .

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا: كالجباة والكتاب والحراس .

وَفِي الرِّقَابِ: في فكاك الأرقاء أو الأسرى .

وَالْغَارِمِينَ: المدينين الذين لا يجدون قضاء .

وَفِي سَبِيلِ الله: في الغزو . أو في جميع القرب .

وَابْنِ السَّبِيلِ: المسافر المنقطع عن ماله .

ذُكرت هنا مصارف الزكاة، وهي تنحصر - حسب ما صرح به القرآن الكريم - في الأصناف الثمانية التالية:

أولاً: الفقراء، وهم المعدمون الذين ليس عندهم شيء ..

ثانياً: المساكين، وهم الذين لا يملكون قدر ما يكفيهم ..

ثالثاً : العاملون على الزكاة، وهم الموظفون الذين تعهد إليهم الدولة الإسلامية بتحصيل الزكوات، وينضم إليهم سائر من يعملون بديوانها من كتبة ومحاسبين .. إلخ .

رابعاً : المؤلفة قلوبهم، وهم الذين يُراد استمالة نفوسهم إلى الإسلام، أو الحديثو عهدٍ بالإسلام، ضعيفو الصلة به، تثبيتاً للإيمان في قلوبهم .

خامساً: الرقاب، في تحرير العبيد من الرق والعبودية، أو لمفاداة الأسرى المسلمين .

سادساً: الغارمون، وهم المدينون، أو الذين كواهلهم مثقلة بعبء غرامة أو ضمانٍ لا يطيقون أداءه.

سابعاً: في سبيل الله، أي في سبيل الدعوة إلى الدين الإسلامي والجهاد فى سبيل الله تعالى .

ثامناً : ابن السبيل، وهو المسافر الذي يتعرض للحاجة في حالة سفره ((ولو كان غنياً في بلده)) .

وإنه إذا تم توزيع الزكوات والصدقات، جرياً على نظام جماعي شاملٍ، فدائماً ما

يحدث أن تنطلق ألسنة بعض الناس بالشكوى من ضياع الحقوق، أو من كون التوزيع غير عادلٍ، على أن شكاية كهذه إنما تدل في أغلب الأحوال على ضعف الشاكي نفسه، فمهما كان المسئول عن شئون التوزيع في قمة النزاهة والعفة، إلا أن حرص الناس وطرق تفكيرهم الضيقة المحدودة، لا تلبث أن تفتعل مثل هذه الشكاوى ودواعي الطعن فيه على أية حالٍ.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن شكايةً كهذه لا تكون أبداً في مصلحة صاحبها، بل تعود عليه هو، قبل غيره، بضررٍ فادحٍ، حيث إنها تحول بين المرء وبين توظيف مواهبه، وإمكاناته الفكرية، ولو أن المرء تخلى عن الشكوى والاحتجاج، فرضي بما وقع في نصيبه، ووجّه تفكيره نحو الله، فسيحدث بعدئذٍ أن تتولد في نفسه همة جديدة، وتستيقظ القدرات الإيجابية المخبوءة في داخله فجأة، وبالتالي سيبذل المبلغ المتاح من المال في وجهٍ أنفع وأكثر فائدة له، مما يشجعه على أن يعتمد على جهده الذاتي بدلاً من الاعتماد على العطايا والصدقات، فسيأخذ في البحث عن فرص اقتصادية جديدة متوكلاً على الله، وبدل الضجر أو التبرم بالآخرين تتولد في نفسه عاطفة التعاون والتضامن معهم.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

هُوَ أُذُنٌ: يسمع كل ما يقال له ويصدقه.

أُذُنُ خَيْرٍ: يسمع الخير ولا يسمع الشر.

مَن يُحَادِدِ الله: من يخالفه ويعاده .

إن منافقي المدينة كانوا يتندرون بالشخصيات الإسلامية ويسخرون منها في مجالسهم الخاصة، ولكنهم إذا قابلوا المسلمين وجهاً لوجهٍ، أكدوا بالإيمان الكاذبة أنهم أوفياء مخلصون للإسلام وأهله، وكان السبب وراء ذلك أن المسلمين في المدينة كانوا أقوياء مرهوبي الجانب، بحيث كان بإمكانهم أن يفتكوا بهؤلاء المنافقين ويستعملوا معهم وسائل القسوة، الأمر الذي جعلهم يعيشون في حذرٍ وخوفٍ دائمٍ من بأس المسلمين، ومن هنا يظهر لنا الوجه الحقيقي لشخصية المنافق وسلوكه، فتدين المنافق مصدره الخوف من البشر، وليس الخوف من الله، فتراه يتمسك بمبادئ العدل والأخلاق حين يتعرض لأي ضغط خارجي أو يحس أي خطرٍ من قبل الجماهير، وأما إذا لم يعد هناك شيء يمسك لسان المرء، ويضبط أعضاءه وجوارحه، سوى الخوف من الله وحده، فإنه يستحيل هناك إلى إنسان آخر تماماً، حيث إنه يصير شخصاً لا يشعر في قرارة نفسه برغبةٍ ما في التزام المبادئ الخلقية، ولا يحس حاجةً ما لتبني موقف العدل والإنصاف !!

ويغيب عن أمثال هؤلاء أن هذا أمر غاية في الخطورة؛ إذْ إنه ليس مخالفةً لأهل الإيمان، بل هو مخالفة لله عز وجل ، ولو أنهم بدل أن يؤكدوا براءتهم بالحلف الكاذب، اعترفوا بخطاياهم، وجعلوا في قلوبهم النصح لدعاة الإسلام، فلربما كانوا جديرين بالعفو والصفح، ولكنهم باختيارهم طريق العناد والمخالفة، لم يلبثوا أن ضموا أنفسهم إلى قائمة أعداء الله، فلا مصير لهم الآن سوى الخزي والعذاب، إن خوف الله يُلين قلب المرء إلى أقصى حدود اللين، وهو بذلك يصغي إلى كل الناس في رفقٍ وسماحةٍ، حتى ولو كانت أحاديثهم لا غناء فيها، أو لا تستند إلى أساسٍ من الصحة، مما يدفع السفهاء والحمقى إلى القول بأنه ساذج الطوية، سطحي الفكر ، لا يكاد يفقه دقائق الأمور، ولا يقدر على تمييز الغث من السمين !

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

نَخُوضُ وَنَلْعَبُ: نتلهى بالحديث قطعا للطريق .

لقد كان الرأي العام السائد في المدينة، في سياق غزوة ((تبوك))، ينظر إلى الذين انطلقوا مع رسول الله ﷺ على أنهم أرباب الشجاعة والعزيمة، ويعد القاعدين في بيوتهم أنهم منافقون جبناء ساقطو الهمة فلم يتمالك القاعدون من المنافقين أن أخذوا يستهزئون برسول الله وأصحابه، للحطّ من قدر أعمالهم وجهادهم، فقال قائل: ((ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء))، وقال آخر : ((أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال))، ومنهم من قال : ((يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها ! هيهات ! هيهات!)) . [1]. ولما بلغ الخبر إلى رسول الله ﷺ دعا القوم وسألهم عن ذلك فراحوا يعتذرون بقولهم : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ - فرد الله عليهم قائلاً : ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؟!

إن قول الله ورسوله يتم إعلانه دوماً على رجلٍ، ولو أن هذا الرجل كان يبدو للناظرين عادياً متواضع الشأن، لأخذوا في الاستهزاء به، غير أن هذا ليس استهزاءً بذلك الرجل، بل هو استهزاء بالله تعالى ذاته، والذين يفعلون ذلك إنما يثبتون أنهم ليسوا بجادّين حق الجدية في دين الله، وأمثال هؤلاء أشد الناس معصيةً وإجراماً عند

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ص١٥٢ ، ١٥٣.

الله تعالى، ولن تفلح تأويلاتهم وتبريراتهم الكاذبة في ستر حقيقتهم أبداً !!

النفاق والردة أو الارتداد كلاهما وجهان لحقيقة واحدة، فلو أن المرء تجاهر بالكفر، وأنكر الإسلام علناً بعد اختياره إياه، فهو يصير مرتداً، أما لو أنه ظل بعيداً عن الإسلام مقطوع الصلة به من حيث قلبه وعقله، ولكنه يتظاهر بالإسلام أمام الناس، فهو يعد منافقاً وسيلاقي أمثال هؤلاء المنافقين عند الله المصير الذي قرره تعالى للمرتدين عن دينه اللهم إلا إذا هم بادروا بالتوبة قبل انتهاء آجالهم، فيعترفون بأخطائهم، ويقومون بإصلاح أنفسهم، فعسى أن يعفوا الله عنهم ويدخلهم في رحمته !

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ: لا يبسطونها في خير وطاعة وشحا .

فَنَسِيَهُمْ: فتركهم من توفيقه وهدايته .

هِيَ حَسْبُهُمْ: كافيتهم عقابا على كفرهم.

فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ: فتمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا .

وَخُضْتُمْ: دخلتم في الباطل .

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت وذهبت أجورها لكفرهم.

وَالْمُؤْتَفِكَاتِ: المنقلبات (قرى قوم لوط) .

لقد اغتر المتقدمون من البشر بما أسبغ الله عليهم من نعمة الجاه والمال والرفاهية، فاستمدوا منها غذاء الفخر والبطر والقسوة، بدل أن يقابلوها بالشكر والامتنان والتواضع، فحلّ بهم عذاب الله الذي أهلكهم عن آخرهم، غير أن المتأخرين لم يتعلموا من عاقبتهم المشئومة أي درسٍ ولا عبرةٍ، فهم الآخرون أحبوا لأنفسهم من متاع الدنيا وزخارفها ما أحبه أسلافهم لأنفسهم، وقد استمر الإنسان العادي على هذا المنوال في كل العصور والأزمان، فهو لا يعير الحق ومقتضياته أي اهتمامٍ، وإنما همّه الأكبر الوحيد هو المال ومقتضيات الأهل والعيال ليس غير، ولا يختلف حال المنافق، من حيث حقيقته، عن هذا في شيء، فهو يبدو كالمسلمين في ظاهر الأمر، إلا أنه يعيش على نفس المستوى الذي يعيش عليه الماديون وعامة أرباب الدنيا، مما يجعل سلوكه في الحياة الحقيقية – ما خلا بعض المظاهر والأعمال السطحية – كسلوك رجال الدنيا العاديين تماماً، حتى لكأنهم أفراد أسرةٍ واحدةٍ، فرغبات المنافق القلبية تتوجه نحو الدنيويين أكثر منها نحو المتدينين، وإن صدره ليضيق بما إذا دُعي للإنفاق في سبيل الآخرة، ولكنه أسخى وأجود ما يكون بماله في مشاغل دنيويةٍ تافهةٍ لا طائل تحتها، أما انتشار الحق والخير فلا يقع منه موقعاً حسناً وأما انتشار الباطل والشر فمما يتمناه وينتظره بكل شوقٍ وفروغ صبرٍ، وهو، مع تدينه الظاهري لا يزال غافلاً عن الله والآخرة، ناسياً إياهما، كما لو أن الله والآخرة لا حقيقة لهما في نظره!!

وإنه لن ينجو أمثال هؤلاء من بطش الله تعالى بناءً على تظاهرهم بالإسلام، إنهم ملعونون في الدنيا، معذبون في الآخرة ، وسيظلون محرومين مطرودين من رحمة الله في

الدنيا والآخرة معاً.

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

قلوب المؤمنين تكون عامرةً بمحبة الله والشوق إلى لقائه، ويكون همّ الآخرة هو الهم الأكبر الذي يسيطر على أذهانهم، ويشغل بالهم ليل نهار، وهم ينظرون إلى أشياء الدنيا على أنها ضرورة لا على أنها غاية في ذاتها، ولا تلبث نفوسهم أن تهفو وتنجذب تلقائياً نحو كل عملٍ يحبه الله، وتأبى طبيعتهم كل الإباء ما لا يرضاه الله من قولٍ أو فعلٍ، وهم يخصّون من حياتهم وبضاعتهم القسط الأوفر لله تعالى دون أنفسهم، وإنهم يكونون لله ذاكرين، وفي سبيله منفقين.

وخصائص أهل الإيمان المشتركة هذه تعمل على تقريب بعضهم من بعض، فيسعون نحو الله تعالى، ويتمركز الكل حول طاعة رسول الله ﷺ ويدور حديثهم حول هذه الأشياء ذاتها التي هي موضوع اهتمامهم المشترك، وبهذه الأوصاف نفسها، يتم التعارف فيما بينهم، وعلى أساسها تقوم علاقاتهم المتبادلة، ومن خلال ذلك يدركون الهدف الذي يبذلون لتحقيقه جهوداً موحدةً منسقةً، وبذلك تتضح لهم معالم الطريق الذي يسيرون عليه صفاً واحداً.

إن حياة المؤمنين في الدنيا مثال لحياتهم في الآخرة، فأهل الإيمان يعيشون في هذه الدنيا كما لو كانت هناك في حديقةٍ ما أشجار خضراء كثيرة، بحيث تزيد بعضها من جمال أختها وبهائها، وتُسقى هذه الأشجار من ينابيع الدموع المتفجرة من الفيض

الإلهي، ويكون كل مسلمٍ ناصحاً لأخيه المسلم، متعاطفاً معه على نحوٍ يجعل من البيئة كلها مهداً للأمن والوئام، وهذه الحياة الربانية ستتحول في الآخرة إلى حياة الجنة الطيبة، وسوف لا يحصد المرء هناك ما قد زرعه بيده فحسب، بل سيفوز من فضل الله ورحمته الخاصة، بإنعامات وجوائز لم تكن قد خطرت بباله من قبل !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ: شدد عليهم ولا ترفق بهم .

نَقَمُوا إِلاَّ: ما كرهوا وما عانوا شيئا .

جاء في رواية أن هناك ما يقرب من ثمانين منافقاً كانوا متواجدين بالمدينة في زمن رسول الله ﷺ مما يدل على أن الأمر بجهاد المنافقين لم يكن بمعنى القتال معهم بالسيف، إذْ لو كان كذلك لأمر رسول الله ﷺ بالقضاء على هؤلاء المنافقين عن آخرهم، وإنما أريد بهذا كما روى القرطبي عن ابن عباس ﷺ الجهاد مع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ عليهم، وقد ذهب الجمهور إلى عدم مشروعية القتال بالسيف مع المنافقين .

حين يرى المنافقون أن هناك عباداً مخلصين لله، اختاروا الإسلام بغض النظر عن المصالح والمنافع، ويدعون الآخرين إلى ذلك، فيخيل إليهم أن دعوتهم تُبطل دعوى إسلامهم مما يوغر صدورهم حقداً وكراهيةً على أولئك الدعاة، فيتصدون لقمع جذورهم، ويناصبون العداء للقائمين بالدعوة إلى الإسلام الذي يتاجرون باسمه، ويتخذون منه مطيةً للتوصل إلى أغراضهم الدنيوية!!

وتظهر عداوة المنافقين هذه في شكل المؤامرة والاستهزاء، فلو أنهم وجدوا شخصا تنطوي نفسه على مشاعر عدائيةٍ ضد دعاة الإسلام الصادقين، فيغرونه بأن يهاجمهم، كما أنهم لا يزالون يسخرون من أهل الإيمان المخلصين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ويثيرون شبهاتٍ وأقاويل تتضمن الاستخفاف بتضحياتهم الغالية، ويتناولون شئونهم العادية المألوفة بإساءة تصويرها، لتتشوه سمعتهم في أعين الجماهير، فقد حدث أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ حين نزل ليستريح في بعض الأماكن في أثناء رحلته إلى «تبوك» فخرج عدد من الصحابة يبحثون عنها، ولما وصل الخبر إلى آذان المنافقين راحوا يتندرون بذلك قائلين : «إن هذا يأتينا بأخبار السماء، وهو لا يدري أين ذهبت ناقته الآن؟!» .

إن المنافقين يكونون أداة طَيِّعةً بيد الشيطان يستخدمها لإفشال جهود دعاة الإسلام الصادقين، غير أن الله تعالى يقف دوماً إلى جانب دعاة الإسلام الخالص، يتولى نصرهم، ورعايتهم، فيحميهم من كل سوءٍ، رغم كل المؤامرات والمكائد التي يدبرها المنافقون ضدهم، وأما مصير المنافقين المحتوم، فهو أن يذوقوا العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، بعد إقامة الدليل على جريمتهم وكفرهم بأقوالهم وأفعالهم أنفسهم !

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يَعْلَمُ سِرَّهُمْ: ما أسروه في قلوبهم من النفاق .

وَنَجْوَاهُمْ: ما يتناجون به من المطاعن فى الدين.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ: يعيبون (هم المنافقون) .

جُهْدَهُمْ: طاقتهم ووسعهم (الفقراء) .

سَخِرَ الله: أهانهم وأذلهم جزاء وفاقا .

جاء ثعلبة بن حاطب (وهو غير ثعلبة البدرى) إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله: ادع الله أن يرزقنى مالاً : فقال : ((ويحك يا ثعلبة : قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه)) ولكن ثعلبة لم يزل يراجعه حتى دعا له النبى ﷺ فقال : ((اللهم أرزق ثعلبة مالاً))، فاتخذ غنماً، فنمت نمواً مضطرداً هائلاً لدرجة أن أرض المدينة ضاقت عليه، فتنحى عنها وبات يسكن فى وادٍ من أوديتها، ومن هنا بدأت صلة ثعلبة بالإسلام تضعف شيئاً فشيئاً، حتى ترك - أولاً - الصلوات في الجماعة، ثم ترك كلاً من الجمعة والجماعة، حتى انتهى به الأمر إلى أنه حينما أتاه مبعوث رسول الله ﷺ لتحصيل الصدقة - أى الزكاة - رفض أن يؤديها إليه، وقال : ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية !! ما أدري ما هذا !؟!

وإنه لرجل منافق عند الله من ظل يدعوه تعالى صباح مساء أن يعطيه المال ، ثم إذا أغناه الله من فضله نسى حق الله فى ماله، ولطالما يلوم المرء - إذا لم يكن عنده مال - الأغنياء والموسرين، ناعياً عليهم إسرافهم وتبذيرهم ثرواتهم في الشهوات والملذات، ويحدث نفسه : لو أن الله رزقني مالاً، فسأبذله في أعمال البر والخير، ولكن لا يكاد يتوفر لديه المال، حتى تتغير نفسيته وعقليته، فيغيب عنه ما سبق أن وعد به فيما بينه وبين نفسه، وما قد عبر عنه من عواطف ومشاعر طيبة، وإنما هو يعد ثروته الآن نتاج

مؤهلاته وجهوده الذاتية، فيمسكها في قبضته، ولا يعود يذكر تأدية ما يجب عليه من حقوق الله عز وجل .

وفى محاولة تغطية النقائص ومواطن الضعف فى أنفسهم، يذهب أمثال هؤلاء إلى أبعد حدود التمرد والطغيان، حيث يسخرون من المنفقين أموالهم فى سبيل الله، فإن تصدق أحد بمالٍ كثيرٍ قالوا : إنه مراءٍ، وإن تصدق أحد بشيءٍ يسير هو غاية جهده وآخر طاقته، قالوا : ما كان الله أغنى عن صدقة هذا! إن الذين بلغوا من الانطواء على أنفسهم والانغماس فيها هذا المبلغ، لا يُبصرون الحقائق العليا الموجودة خارج ذواتهم أبداً !

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

خِلافَ رَسُولِ الله: بعد خروجه، أو لأجل مخالفته.

لاَ تَنفِرُوا: لا تخرجوا للجهاد في تبوك .

الخَالِفِينَ: المتخلفين عن الجهاد كالنساء .

وقعت غزوة تبوك في أيام صيفٍ شديد الحرارة، وكانت المسافة بين المدينة ومشارف الشام – موقع الغزوة – تبلغ ثلاثمائة ميلٍ، فقال المنافقون، تثبيطاً لهمم المجاهدين : لا

تخرجوا لسفرٍ طويل كهذا في مثل هذا الحر الشديد اللاذع، وقد نسي هؤلاء، وهم يقولون ذلك، أن عدم الخروج بعد سماع النداء الإلهي، تحسّباً لخطرٍ من الأخطار، هو إيقاع النفس في خطرٍ أشد، فكان مثلهم كمثل المستجير من الرمضاء بالنار !!.

والذين يحبون أنفسهم وأموالهم أكثر من الله ورضوانه، فإنهم أشد ما يكونون فرحاً وسروراً بها إذا نجحوا - بفضل تدابيرهم الماكرة - في الانضمام إلى صفوف المسلمين من ناحية، والإبقاء - مع ذلك - على سلامة حياتهم وثرواتهم من أي خطرٍ من ناحيةٍ أخرى، فهم يعدّون أنفسهم أذكياء لبقين، ويصفون الذين يخاطرون بأرواحهم ابتغاء مرضاة الله بأنهم سفهاء .

غير أن هذا ليس إلا غباءً محضاً، إنه لضحك ينتهي بصاحبه عاقبة الأمر إلى بكاءٍ مرٍ دائمٍ لا ينقطع، فإن «اللباقة» أو «الدهاء» من هذا النوع سيُعد أعظم أنواع الغباء والحماقة في العالم الآتي بعد الموت، وسيندم المرء يومئذٍ أنه كان يطلب الجنة، ولكنه لم يدفع لها من بضاعته الثمن الوحيد لها!

وعاقبة هؤلاء ألا يُتاح لهم المكان في المناسبات الإسلامية إلا في الصفوف الخلفية، وألا يُسمح لهم بالتدخل في شئون المسلمين الاجتماعية، وأن يتم اعتبارهم غير أكفاء ولا مؤهلين لتولي المناصب الدينية، إن المجتمع الذي تبوأ في ظله أمثال هؤلاء منازل الشرف والكرامة، لن يكون أبداً مجتمعاً مرضياً مقبولاً عند الله تعالى ! .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ: تخرج أرواحهم.

أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ: أصحاب الغنى والسعة من المنافقين .

الخَوَالِفِ: النساء المتخلفات عن الجهاد.

وَطُبِعَ: ختم .

يتمكن المنافق، بأساليبه الوصولية والنفعية، من إحراز كمياتٍ وافرةٍ من أسباب الدنيا ووسائلها، كما يكون لديه جمع غفير من الأعوان والأنصار يسيرون فى ركابه، وربما تبهر هذه الأشياء أبصار السطحيين من الناس، ولكن بريقها الظاهرى، ليس لدى المتعمقين وذوى النظرات الثاقبة مثار الغبطة، بل هو موطن العبرة؛ لأن هذه الأشياء تعوق أصحابها عن المضى فى طريق الله .

وإنما العبد المحبب إلى الله هو الذي يتقدم نحو ربه بقطع النظر عن كل التحفظات والمصالح، وأما الذين تورطوا في مباهج الدنيا وزخارفها ، فإنهم لا يستطيعون أن يسموا بأنفسهم فوقها، فكلما أرادوا التقدم نحو الله، خُيّل إليهم وكأنهم سيخسرون كل ما يملكون، وتلك تضحية يعوزهم الشجاعة الكافية على القيام بها، ومن ثم لا يكونون أوفياء لله فى كل الظروف والأحوال، وإنما هم ينالون ما ينالون من الرقى والازدهار فى الدنيا على حساب الضياع والحرمان الكامل فى الآخرة .

وأمثال هؤلاء حين يطالبهم دين الله أن يكبتوا أنانياتهم ويتمسكوا بالله مخلصين، فلا يقدرون على كبْت أنانياتهم الجامحة، وحين يأمرهم دين الله بالسير في الطرق الخالية من الشهرة والشعبية، فإنهم يتخلفون عن الركب حفاظاً على شهرتهم وشعبيتهم ، وحين يتطلب دين الله التضحية بالنفس والمال، فإن أنفسهم وأموالهم تبدو لهم أثمن من أن

يضحوا بها لأجل هدفٍ غير دنيوي !!

وتظل هذه الكيفية تزداد حتى تصل إلى حدٍ تتحجر معه قلوبهم، وتنعدم رهافة إحساسهم، ويصابون بالجمود والقسوة، يفقدون معها تلك اللهفة التي تدفع المرء نحو الله، وتجعله لا يرضى لنفسه بشيءٍ مهما كان، غير الله - سبحانه وتعالى !!

وعلى النقيض من ذلك فإن أهل الإيمان الصادقين يعطون المقام الأكبر والأرفع لله عز وجل، ولذا فكل شيءٍ آخر يهون في نظرهم دون الله تعالى، وهم يكونون على استعدادٍ دائمٍ للتقدم نحو الله، مضحين بأرواحهم وأموالهم في سبيله، وهؤلاء هم الذين يفوزون برحمات الله ونعمه، وإنه ليس هناك غير الموت شيء يحول بينهم وبين جنان الله الأبدية !

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المُعَذِّرُونَ: المعتذرون بالأعذار الكاذبة .

حَرَجٌ: إثم ، أو ذنب في التخلف عن الجهاد .

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ: تمتلئ به فتصبه .

إن جهاد الدعوة إلى الدين حين يتطلب من الناس حياتهم وأموالهم، فإن القعود

حينئذٍ، رغم توافر القدرة والغنى، جريمة شنيعة جداً، ودليل انعدام الحساسية نحو النداء الدينى، ومثل هذا السلوك، بالقياس إلى مسلمٍ، معناه الخيانة والغدر بالله ورسوله، ولا يستحق أمثال هؤلاء مثقال ذرةٍ من رحمة الله، فإنهم إذا لم يقدموا ما كان عندهم إلى الله، فلماذا سيعطيهم الله تعالى مما عنده؟ إن شيئاً ما لن يظفر به أحد قبل أن يدفع ثمنه .

على أن ذوى الأعذار الحقيقية : كالمرضى، والزمنى، والذين لا يقدرون على شيءٍ من نفقات الجهاد، ومَنْ على شاكلتهم، سيعفو الله عنهم ، وليس ذلك فحسب، بل ويمكن أيضاً أن يسجل في صحائف أعمالهم كل شيءٍ، مع أنهم لم يأتوا بشيءٍ، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه في أثناء العودة من «تبوك» : «إن بالمدينة أقواماً، ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً، إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة!؟، قال : «نعم، حبسهم العذر» (أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك) .

مَنْ هؤلاء السعداء الذين ينالون أجر العاملين وهم لم يقوموا بالعمل!! إنهم أولئك الذين يقيمون الدليل - إلى جانب كونهم ذوى الأعذار - على ثلاثة أشياء :

أولاً :النصح، وهو يعنى المشاركة القلبية أو الوجدانية إذا عجزوا عن المشاركة الفعلية.

ثانياً : الإحسان، وهو أن يفعلوا كل ما يستطيعونه بألسنتهم - على الحد الأدنى - من تمني الخير، وطلب النصر والتأييد، وما إلى ذلك .

ثالثاً: الحزن، وهو يعني الإحساس بألمٍ نفسيٍ شديدٍ على قصورهم وحرمانهم، ما لا يلبث أن يسيل دمعاً من أعينهم!

إن رجلاً ما حين يعد شيئاً غير ذي أهمية في حياته العملية، فيقابله دائماً بالإهمال وعدم الاكتراث له، فإنه بمضي الزمان يفقد حتى مجرد الشعور بأهميته، وقد تتراءى له مقتضيات ذلك الشيء بين الحين والحين، ولكنه لا يستطيع التقدم نحوه لخلو قلبه من

اللهفة إزاءه، وهذا هو الشيء الذي يُسمى بالجمود أو القسوة، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بـ «الطبع أو الختم على القلوب» !

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

إِنَّهُمْ رِجْسٌ: قذر باطنا وظاهرا .

﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ توضح هذه الجملة أن المراد بالمنافقين المذكورين هنا، هم الذين كانوا في زمن نزول القرآن الكريم ؛ لأن الاطلاع عن طريق الوحى الإلهى مباشرةً أمر خاص بعهد النبوة، ولم يعد ذلك ممكناً الآن بعد ختم النبوة، وقد كان العدد الكلى لهؤلاء المنافقين الذين أطلع الله رسوله على نفاقهم بالوحى، كما رواه ابن سعد فى طبقاته، يبلغ اثنين وثمانين (٨٢) شخصاً .

وقد أمر الله المسلمين بالإعراض عنهم والتنكر لهم، وأما إنزال العقوبة أو العذاب بهم، فأمر جعله الله في يده، ومع أن رسول الله ﷺ أخذ منافقي المدينة بالشدة والتغليظ في معاملتهم، بحيث لم يقبل أعذارهم التي اعتذروا بها، وحتى إنه رفض زكاة ثعلبة بن حاطب الأنصاري، التي جاء بها بعد ثبوت نفاقه، إلا أنه لم يأمر بقتل أحدٍ منهم قط، فلما أراد عبد الله بن عبد الله بن أبي أن يستخدم العنف مع أبيه - رأس المنافقين - إنهاءً لفتنته، منعه رسول الله ﷺ عن ذلك قائلاً : «دعه، فلعمري لنحسنن صحبته ما دام بين

آظهرنا»[1].

وهذا الحكم نفسه ينطبق على المنافقين في العصور المتأخرة، مع ملاحظة فارقٍ جوهري، وهو أن الموقف الذي اتخذ إزاء منافقي الصدر الأول كان مبنياً على بواطنهم، ولكن المنافقين المتأخرين سيجري التعامل معهم بناءً على ظواهرهم، فلا يجوز أن نقف منهم موقف الإعراض والتنكر، إلا فى حالة ما إذا وُجد هناك دليل خارجى، من أعمالهم أو أقوالهم يؤكد نفاقهم، وبالتالي لن يتخذ أى إجراء ضدهم اعتماداً على نياتهم أو سرائرهم، وستُقبل أعذارهم إذا تقدموا بها في شأنٍ من الشئون، كما تُقبل زكواتهم وصدقاتهم وما إليها، وبالجملة ينبغى أن تُوكل سرائرهم وضمائرهم إلى الله، ويُعاملوا المعاملة التى يقتضيها القانون الظاهرى العام.

إن الجنة إنما يظفر بها الإنسان على أساس عمله الذاتى، وليس على أساس انضمامه إلى جماعة المسلمين، فقد كان المنافقون جميعاً منضمين إلى صفوف المسلمين، وكانوا يصلون ويصومون معهم، ولكن - بالرغم من ذلك - أعلن القرآن أنهم أصحاب النار!

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

وَأَجْدَرُ: أحرى وأحق.

مَغْرَماً: غرامة وخسرانا.

---

(١) طبقات ابن سعد.

وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ: ينتظر بكم مصائب الدهر .

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ: الضرر والشر (دعاء عليهم).

وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ : دعواته واستغفاره (للمنفقين) .

لقد ورد فى حديثٍ أن : ((من سكن البادية جفا)) .

إن المدينة تمتاز بما يسودها من جوٍ علمي، وما يقوم في جنباتها من مؤسساتٍ تعليمية وثقافيةٍ، وما يزدهر في رحابها من ألوان النشاط في مختلف حقول العلم والفن .. أما سكان البوادي فلا تتاح لهم الفرص من هذا النوع، كما تكون أساليب حياتهم وموارد عيشهم وعاديةً بالقياس إلى أهل المدن، مما ينتج عنه أن سكان البوادى لا تتولد في نفوسهم دقة الشعور ورهافة الحس، وتتسم طباعهم بالغلظة والجفاء، وطرق تفكيرهم بالسطحية والغباء، وبالتالى يصعب عليهم أن يتفهموا دقائق الدين ويغوصوا فى أعماقه.

إن الله تعالى محيط بكل شيءٍ علماً، وهو حكيم فى صنعه، ورحيم بخلقه، ولكونه خبيراً بضعف البدو العوام ، اقتضت حكمته ورحمته أن يراعى هذا الجانب في تكاليفه عليهم تمام المراعاة، ومن ثم فليس يطلب الله من أمثال هؤلاء أن يقيموا الدليل على المعرفة العميقة والتدين الأعلى، بل سيرضى الله عنهم بالتدين البسيط، فيما لو كانوا ذوى نياتٍ صالحةٍ طيبةٍ .

فتدين العوام يتلخص في أن يقروا بوجود الله كخالقٍ ومالكٍ لهذا الكون بما فيه، من صميم قلوبهم، ويكونوا على استحضارٍ دائمٍ أن هناك يوماً آخر آتٍ لا محالة، ولن يتخلف عن موعده، وأنهم سيحاسبون فيه عن كل ما صدر عنهم في الحياة الدنيا من قولٍ وعملٍ، وأن يعطوا جزءاً مما يكسبون في سبيل الله وسيلةً للتقرب إلى الله، والفوز ببركاته ودعوات رسوله المباركة المستجابة، وهذا هو المستوى العامّ للتدين، ولو أن نية المرء كانت صافيةً غير مغشوشةٍ، لتفضل الله تعالى بقبول هذا التدين منه .

وأما لو صار العوام غافلين عن الله وأحكامه جملةً وتفصيلاً، وازداد بعدهم عن الدين إلى حدٍ يعدّون معه الإنفاق في سبيل الدين غرامةً ثقيلةً بغيضة، ولا تسرهم أنباء ازدهار الإسلام وامتداد نفوذه، بل يتلقونها بوجوهٍ عابسة، وجباه مقطبة مقتاً واستياءً بذلك، فإنهم ليسوا جديرين بالعفو البتةَ؛ إذْ من المحتمل أن يتم إعفاء العوام - نظراً لقلة فهمهم وضعف مداركهم العقلية - من مطالبة التدين العميق، غير أن قلة فهمهم لو تحولت إلى التمرد والغدر بالإسلام فإنهم لن يقابلوا بالعفو والصفح بحالٍ من الأحوال !

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

إن الدعوة إلى دين الله أينما نهضت، تواجه دوماً إحدى اثنتين : فإما أن تناصبها البيئة عداءً شرساً سافراً، فتتصدى للقضاء عليها بالقوة، وفي بيئةٍ كهذه يصبح دعاة الدين غرباء بلا مؤنس ولا مأوى يلجؤون إليه، مما يضطرهم إلى مغادرة أوطانهم راغمين، وهؤلاء هم الذين يسمون : ((المهاجرين)).

أما الأخرى فهي: أن تكون البيئة مواتيةً للدعوة إلى دين الله، ففي مثل هذه البيئة لا يتعرض الدعاة للقهر و الاضطهاد أو السلب والنهب، شأن القائمين بالدعوة في البيئة الأولى المعادية، بل يقوم أهل هذه البيئة بإيواء الدعاة الأولين، ومد يد العون والنصرة، ومن ثم سموا ((الأنصار)) .

وقد أسفرت ظروف مكة القاهرة في صدر الإسلام عن تحول المسلمين هناك إلى

مهاجرين، كما أدت ظروف المدينة الوادعة الملائمة إلى صيرورة المسلمين هناك أنصاراً، وإن رضوان الله وجنته لا يفوز بهما أحد إلا في مقابل الهجرة أو مقابل النصرة، فإما أن يكون المرء من التجرد والإخلاص لله بحيث تنفلت من يده أزمة الدنيا، فيعود غريباً مسلوباً مطارداً، وإما أن يجعل من نفسه بديلاً عن حرمان الطائفة السابقة الذكر، إذا كانت تتوفر لديه أسباب العيش ووسائل القوة والمنعة.

ولقد كان الصحابة الكرام - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - أنموذجاً كاملاً لهذه الهجرة والنصرة، والذين سيقتدون بهؤلاء السابقين في الهجرة والنصرة، من المسلمين اللاحقين أو المتأخرين، سينضمون - بالتبع - إلى تلك الطائفة الإلهية المقدسة .. وقد يقضي الله تعالى على بعض الناس بالحرمان، كي تستيقظ في نفوسهم مشاعر الإنابة والتضرع، كما أنه تعالى ينقذ أناساً آخرين من الحرمان، لكي يكونوا من المنفقين في سبيل الله من خلال التقدم بالنصر والمعونة إلى المحرومين والبائسين، إن هذا تدبير الله، والذين لا يقيمون الدليل على ذلك، أناس لم يرضوا منهج الله، ومن ثم فلن يرضى الله عنهم كذلك فى اليوم الآخر !

وقوله : ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ يعنى أن الذي أقامه الله في ظل ظروف اضطرته إلى التخلي عن كل شيءٍ، فتخلى عنه طوعاً، وظل ثابتاً مستقيماً على الدين الحق، والذي اقتضت ظروفه المحيطة به أن يشرك في ثروته وأملاكه إخواناً له في الدين، تجمع بينه وإياهم وحدة الهدف، دون وشائج النسب أو القرابة، فهو الآخر لم يلبث أن قابل ذلك بكل رضاً وسرورٍ، فهؤلاء هم الذى فازوا برضوان الله، وهم الذين سيدخلون فى الجنان الأبدية .

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

من الناس من لا تنطوي نفوسهم على الشر، كما أنهم يداومون على القيام بالأعمال الدينية الرتيبة في الظروف العادية، ولكن حين يعرض لهم أي مقتضىً من مقتضيات الدين، يتطلب أداءه تحطيم خريطة حياتهم الجاهزة، فإنهم لا يستطيعون نذر أنفسهم وأموالهم للدين كما ينبغي، فضعف العزيمة والإرادة، أو الانهماك في مشاغل الدنيا، يقف حجر عثرةٍ دون قيامهم بلعب الدور المطلوب أو المرجو منهم في سبيل الدين، ومع أن أمثال هؤلاء مخطئون، إلا أن خطأهم يقابل بالعفو، إذا هم اعترفوا به، وبادروا بالعودة إلى جادة الدين، مغمورين بإحساس الخجل والندامة .

ودليل الاعتراف والندم هو أن تتولد في أنفسهم عواطف الخدمة الدينية من جديدٍ، فيقدمون جزءاً من كرائم أموالهم في سبيل الله، تطهيراً لضمائرهم من آثار الذنب، وإذا ما ظهر رد فعلٍ كهذا من جانب هؤلاء فقد أمر النبي ألا يلومهم الآن ولا يؤنّبهم على ما بدر منهم، بل ليحاول أن يهدئ من روعهم، ويقدم لهم دعماً نفسياً وسنداً معنوياً بأن يدعو لهم ويصلي عليهم، حتى يتحول ما في قلوبهم من همٍ ثقيلٍ، نتيجة إحساسهم بوطأة الذنب، إلى عزيمةٍ وثقةٍ إيمانية جديدةٍ .

إن ارتكاب الخطأ ليس هو السوء الأصلي عند الله، بل الإصرار على الخطأ والتمادي فيه، فالشخص الذي أخذ بعد ارتكاب خطأ ما، في تبريره بصنوف الحيل، والتأويلات الكاذبة، صار إلى الهلاك، والدمار لا محالةً، وأما الشخص الذي بادر بإصلاح نفسه، معترفاً بما صدر عنه من خطأ، فهو جدير بعفو الله تعالى وغفرانه .

وبعد ارتكاب الخطأ، يكون المرء دوماً بين خيارين : أحدهما أن يعترف بخطئه، والآخر أن يسلك طريق التمرد والعناد، والاعتراف بالخطأ يملأ نفس صاحبه بمشاعر التواضع والخشوع لله، مما يؤهله ثانياً لحرمات الله وعناياته، وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذي يلجأ إلى العناد فكأنما يسير في طريق ينتهي به حتماً إلى غضب الله، بحيث إنه سيختلق ضروباً من التأويلات الباطلة تبرئةً لنفسه، وبالتالى ستجره، محاولة تبرير خطأٍ واحدٍ، إلى أن يرتكب كثيراً من أخطاءٍ أخرى، وإذا كان الأول جديراً بعفو الله ورحمته، فإن هذا الأخير لا يستحق إلا سخط الله وعقابه .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

مَسْجِداً ضِرَاراً: مضارة لأهل مسجد قباء .

وَإِرْصَاداً: ترقبا وانتظارا ، أو إعدادا.

لمَسْجِدٌ: هو مسجد قباء أو المسجد النبوى .

عَلَى شَفَا جُرُفٍ: على حرف بئر لم تبن عليه الحجارة.

هَارٍ: هائر متصدع أو متهدم .

فَانْهَارَ بِهِ: فسقط البنيان بالبانى .

رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ: شكا ونفاقا فى قلوبهم .

تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ: تتقطع وتتفرق أجزاء بالموت .

لبناء الحياة أساسان : التقوى، والظلم .

أما الصورة الأولى فهى : أن يكون الخوف من الله هو الأساس أو القاعدة التى يُقام عليها بناء الحياة، وأن تكون الفكرة التي تخضع لها أنشطة المرء كلها، هي الفكرة القائلة بأنه سيحاسب عن كل ما يصدر عنه من قولٍ وفعلٍ أمام إله يعلم سره وعلانيته، وسيجازي هو كل أحدٍ بحسب أعماله الحقيقية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومثل هذا الشخص كمثل من يقيم بناءه على صخرةٍ متينةٍ صلبةٍ .

وأما الصورة الثانية فهى : أن يكون قلب المرء خلواً من أي خوفٍ من هذا النوع، فيعيش في الدنيا حياة حرةً طليقةً من كل القيود، ويقول ويفعل ما يشاء من غير التزام بأي مبدأٍ من المبادئ الخلقية أو الشرعية، ومثل حياة شخصٍ كهذا كمثل مبنىً رُفع على شفير وادٍ متصدعٍ مشرفٍ على التهدم والسقوط، وإذا به لا يلبث طويلاً حتى ينهار في ذات يومٍ بكل من فيه، ويستقر في أعماق هوةٍ سحيقةٍ !!

إن أقبح وأشنع جريمة من جرائم أولئك الذين يؤسسون بنيان حياتهم على قاعدة الظلم هي التي ضرب لها مثالاً أصحاب «مسجد الضرار» في المدينة، وقد كان في المدينة يومئذٍ مسجدان، أحدهما مسجد النبى الواقع في وسط العمران، والآخر مسجد قباء الكائن بضواحي المدينة، فاتخذ المنافقون مسجداً ثالثاً ليكون وكراً للتآمر على الإسلام وأهله، ومع أن عمليةً كهذه تمارس باسم الدين غير أن القائمين بها يرمون من ورائها في الحقيقة إلى معارضة دعوة الحق لأجل الحفاظ على قيادتهم وسيادتهم، فالذين لا يوفقون إلى قبول الحق بسبب أنانياتهم وعبوديتهم لأنفسهم، يشكلون جبهةً معاديةً للحق وأتباعه، ويقومون بأعمال التخريب والتدمير ضدهم، وتتسبب نشاطاتهم السلبية في إحداث الفتنة والفرقة بين صفوف المسلمين، وأمثال هؤلاء يمارسون أعمالهم

التخريبية هذه باسم الدين، حتى إنهم يحاولون استقدام الشخصيات الدينية المسلم بها إلى مسرح أعمالهم لكسب ثقة الناس بهم .. وينسى هؤلاء في عداوتهم العمياء، أن مخالفة الحق هي في الحقيقة مخالفة الله، والتي لن تتكلل بالنجاح في دنيا الله أبداً، وإنما قُدر لأمثال هؤلاء أن يموتوا وقلوبهم يمزقها الحسرة والأسى، وقضى عليهم بالحرمان الأبدى من رحمة الله!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

السَّائِحُونَ: الغزاة المجاهدون .

لِحُدُودِ الله: لأوامره ونواهيه.

الإيمان بالله يعنى أن تبيع نفسك لله، فالعبد يتقدم بنفسه وماله إلى الله، كى يعطيه الله الجنة عوضاً عنهما، وليس هذا في الواقع إلا تعبيراً عن التسليم والخضوع فإن العلاقة الحقيقية، إنما تتحقق دوماً على مستوى التسليم والخضوع، والمطلوب أن تصل علاقتك بالله هي الأخرى إلى هذه الدرجة نفسها ، ولن يفوز أحد بنعيم الجنة الأبدى بدون هذا التسليم الكامل .

وحين يختار المرء دين الله على هذا النحو، فلا تعود قضية الدين قضية منفصلة عن ذاته، بل هى تصبح قضيته الذاتية بكل معنى الكلمة، حيث إنها تصير الآن مركز اهتماماته ومخاوفه كلها، فلو أن الدين تطلب منه المال، أحضر له كل ما لديه من مالٍ،

وإذا طُولب بأن يهب للدين وقته ومؤهلاته، سخرها لخدمته على الفور، وحتى لو اقتضى الأمر يوماً أن يؤدي دوره في سبيل إعزاز الدين معرضاً وجوده لخطر الفناء، أو أمواله للتلف والضياع، أقدم على ذلك عن طيب خاطرٍ!!

والذين يسلمون أنفسهم لله على هذا النحو، تتولد فيهم مزايا وأوصاف عالية، فتبلغ حساسيتهم من التيقظ مبلغاً يعلمون معه خطأهم عند صدوره عنهم، وبالتالي يبادرون من فورهم إلى الاعتراف به والتوبة عنه، وهم يكونون خاضعين لله، متذللين بين يديه، ويدركون آيات عظمة الله وجلاله المنبثة في أرجاء الكون، بحيث تبدأ قلوبهم وألسنتهم تلهج تلقائياً بالثناء والحمد على ذلك، وهم يصبحون سائحين، أي أن الرحيل عن العالم البشري إلى العالم الإلهي يكون - بالنسبة إليهم - مصدر طمأنينة وسكينة أعظم وأوفر، ويصير السجود والركوع أمام ربهم شيئاً محبباً إلى نفوسهم، وكل من تربطه بهم علاقة ما، يحاولون هدايته وإرشاده إلى طريق الخير والمعروف، وإذا وجدوا أحداً يمارس السوء والمنكر على مشهد ومرأى منهم، تصدوا لنهيه عن ذلك، وهم يكونون على غاية الحذر والتنبه فيما يتصل بحدود الله، فهم يسهرون على حدود الله تماماً كما يسهر البستاني على بستانه، وهؤلاء هم الذين سيقت إليهم البشرى بالإنعامات الإلهية

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

لأَوَّاهٌ: لكثير التأوه خوفا وشفقا .

إذا كان شخص ما كافراً ومشركاً، ثم وصلت إليه دعوة الدين الحق إلى حد أن تقوم عليه الحجة، وينقطع عنه العذر، ولكنه ظل مصراً على كفره وشركه، ولم يؤمن بالدعوة، فإنه يصبح بعدئذٍ، بموجب القانون الإلهي، من أصحاب الجحيم، وبالتالي يكون طلب المغفرة والنجاة لشخصٍ كهذا، بمثابة الاستهانة بقدر الإيمان، ورفضٍ للعدل الإلهي؛ مما اقتضى النهي عن مثل هذا الدعاء.

على أن كلمة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾ الواردة في هذه الآيات تدل على أن هذا الحكم يتعلق بمشركي عهد النبوة، الذين تم الإخبار عنهم، عن طريق الوحي بأنهم أصحاب النار، وخلفية هذه الآيات أنه حين أُمر رسول الله ﷺ بألا يصلي على المنافقين إذا ماتوا أبداً، ولا يقوم على قبر أحدهم داعياً أو مستغفراً له ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ [التوبة] أثار ذلك حفيظة المنافقين، فاتخذوه موضوع الدعاية ضده - عليه الصلاة والسلام -حيث شرعوا يقولون: إن هذا يدعى أنه نبى الرحمة، وأنه متبع ملة إبراهيم، إذًا فما باله ينهى المسلمين عن الاستغفار لإخوانهم وذوي قرابتهم، على حين أن إبراهيم قد سأل الله المغفرة حتى لأبيه الذي كان مشركاً! فقيل رداً عليهم: إن إبراهيم كان قطع على نفسه عهداً أنه سيطلب من الله العفو والمغفرة لوالده الضال المشرك، ولكن ما إن نبهه الوحى على عداوته المستمرة لله إلى آخر لحظاته، حتى تبرأ منه، وكف عن استغفاره له.

لقد أودع الله في كل إنسانٍ القدرة على تمييز الخير من الشر، فإذا عُرضت عليه دعوة تمنعه عن الشر، وجد كيانه الداخلي كله مصدقاً بها، حيث إنه يشعر بوخزة خفيفة تختلج في طيات قلبه، تدفعه إلى أن يشهد بصدقها ويتناولها بالقبول على الفور، ولو أن المرء أعرض عن هذه (الوخزة أو الدفعة الداخلية) غير مكترثٍ ولا مستجيب لها، ولم يجتنب ما ينبغي عليه أن يجتنبه، فإن حساسيته الفطرية تبدأ تضعف شيئاً فشيئاً حتى تصاب فى

نهاية المطاف بالجمود والموت الكلي، وهذا هو الشيء الذي تم التعبير عنه بـ «الإضلال»، وعبارة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ توضح أن هذا الخطر ليس خاصاً أو محدقاً بطائفةٍ دون أخرى، بل يمكن أن يتعرض له المسلمون كما يتعرض له غيرهم .

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

سَاعَةِ الْعُسْرَةِ: وقت الشدة والضيق في تبوك .

يَزِيغُ: يميل إلى التخلف عن الجهاد.

بِمَا رَحُبَتْ: مع رحبها وسعتها .

لِيَتُوبُوا: ليداوموا على التوبة .

في غزوة تبوك برزت جماعة من المسلمين قامت بضرب أروع مثالٍ للتضحية والفداء من أجل الإسلام، حيث أخرجت خيرة ما لديها من ثروةٍ ومتاعٍ لتجهيز الجيش، وخرجت - تاركةً وراءها بساتينها وقد نضجت ثمارها، وزروعها وقد حان حصادها في رحلةٍ طويلةٍ شاقةٍ، تقطع فيها الثلاثمائة ميلٍ في حرٍ شديدٍ لافحٍ، لتخوض في كفاحٍ عنيفٍ مع أقوى دولةٍ في العالم حينذاك، وكان الجيش - وقد سمي جيش العسرة - يعاني من قلة الزاد والعتاد لدرجة أن رجالاً عديدين كانوا على بعيرٍ واحدٍ يتعاقبونه الواحد تلو الآخر، ولم يكن يقع في نصيب الرجل، في بعض الأوقات، وقد اشتد به الجوع والعطش، سوى تمرةٍ واحدةٍ وجرعة من ماء، على أن هذه المرحلة البالغة

القسوة، لم تكن إلا تمحيصاً وامتحاناً للعزائم والإرادات، فلما أقام المريدون الدليل على صدق إرادتهم، سلط الله على العدو رعباً، دفعه إلى التراجع والانسحاب عن ميدان المواجهة، وعاد المسلمون ظافرين دون أن يحتاجوا لإهدار دمٍ.

وكانت هناك طائفة أخرى هي طائفة المعترفين ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة : ١٠٢] .

إن هؤلاء لم يستطيعوا الانطلاق مع ركب المجاهدين بسبب انشغالهم في أمورهم الدنيوية، غير أنهم سرعان ما أحسوا أنهم قد ارتكبوا خطأً جسيماً، مما أجّج في قلوبهم نيران الاعتراف والندامة، فقامت غزارة دموعهم الحارة بتلافي قصورهم العملي، وبالتالي شملهم الله تعالى بعفوه ورحمته ؛ لأنهم كانوا قد اعترفوا بخطئهم متواضعين .

والطائفة الثالثة هي التي تألفت من الثلاثة الذين خُلّفوا ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة : ١١٨] وهم : كعب ابن مالك، ومرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وهؤلاء وإن كانوا يعتبرون عدم خروجهم خطأً وتقصيراً منهم في فريضة الجهاد في سبيل الله، إلا أن مشاعر التوبة والإنابة المنبعثة في نفوسهم لم تكن - أول الأمر - قد بلغت المستوى المطلوب مما اقتضى مقاطعتهم اجتماعياً، وقد كان بإمكان هؤلاء أن يعيشوا هادئين مطمئنين رغم هذه المقاطعة الاجتماعية، إذْ كان لديهم في مساكنهم الطيبة وحدائقهم الغناء مجالاً فسيحاً للشغل والتسلية، كما كان بإمكانهم أيضاً أن يلجأوا إلى الثورة والتمرد والغدر، ويقوموا بتشكيل كتلةٍ أو جمعيةٍ مستقلةٍ لهم بالتواطؤ مع العناصر الغاضبة في المجتمع آنذاك، وأن يعمروا دنيا أفراحهم ومسراتهم

في جزيرةٍ منعزلةٍ عن عامة المسلمين، غير أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل إن إحساس البعد عن الله وعن رسوله قد أقض مضاجعهم وأقلق بالهم لدرجة أنهم أصبحوا لا يجدون السكينة في أي مكانٍ في الخارج، ولا يجدونها في قلوبهم، بمعنى آخر: إن قلقهم ذاك كان اختيارياً، ولم يكن إجبارياً أي مفروضاً عليهم من الخارج، وقد أدى موقفهم هذا إلى أن ذابت قلوبهم وتدفقت رقةً وتضرعاً إلى الله وفي مدة الخمسين يوماً توصلوا إلى المستوى المطلوب من التوبة والإنابة، وبعدئذٍ تم العفو عنهم كذلك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ: لا يترفعوا بها ولا يصرفوها.

نَصَبٌ: تعب ما .

مَخْمَصَةٌ: مجاعة ما .

يَغِيظُ الكُفَّارَ: يغضبهم ويغمهم .

نَيْلاً: شيئا من قتل أو أسر أو غنيمة .

إن الحياة الإنسانية هي حياة اجتماعية، الأمر الذي يقتضي أن يتكون لكل شخصٍ وسط أو محيط حسب ميوله واتجاهاته، يقضي فيه ليله ونهاره بين أشخاصٍ آخرين يجمع

بينه وبينهم اتحاد الميول والاتجاهات، فالذين يخافون الله، ويرغبون في السير على درب الإيمان، يجب عليهم أن يختارو لصحبتهم ولقاءاتهم الصادقين من الناس ؛ أي الذين تكون حياتهم قد انطبعت بطابع الخوف من الله المستقر في أعماق قلوبهم، والذين يُوجد بين أقوالهم وأعمالهم توافق وانسجام كامل، فبمعاشرة الصادقين يصبح المرء صادقاً، وكذلك العكس صحيح .

يمر المؤمن فى حياته بمواقف ؛ إذْ تتطلب قضية خدمة الإسلام أن يخاطر بنفسه من أجلها، إذْ يجب عليه أن يلعب دوره في سبيل الإسلام على شدة الجوع والعطش، وإذ يُطالب بالتقدم نحو الله، لاقيا ما لقي في ذلك من الجهد والعناء، والتعب والإعياء، وإذ يكون لابد من الانضمام إلى الصف الإسلامي رغم الأخطار المحدقة من قبل الأعداء، إذْ يُدعى إلى مناصرة الله والانضواء تحت لواء رسوله، وإن كدر عليه ذلك صفو حياته، وبدّل هدوءه واستقراره قلقاً واضطراباً، ففي مواقف كهذه يحلو للمرء أن يقعد متخلفاً عن الكفاح والجهاد، آخذاً بدواعي الحذر والاحتياط، ويغيب عنه أن هذه هي المواقف الحاسمة، حيث يتمكن من إقامة الدليل العملي على علاقته بالله تعالى، وعلى جدارته وأهليته للجنة التي عند الله تعالى !!

كان أبو خيثمة الأنصاري واحداً من جملة أولئك الذين فترت - أول الأمر - هممهم عن إعلان النفير العام لغزوة تبوك، فلم يبادروا بالخروج مع رسول الله ﷺ وصحبه، وقد ذهب يوماً - بعد مسير الجيش - إلى بستانه، حيث كان الظل وارفاً ظليلاً، ووجد مسكنه وسط البستان مبللاً رطباً، مفروشاً بالحصير، ووجد امرأته قد أعدت له الطعام الشهى، والماء البارد الروي، وأحضرت عناقيد من العنب الطري، غير أن أباخيثمة، الذى كان قد تخلف عن الغزاة إيثاراً لأسباب الراحة والرفاهية الدنيوية هذه، لم يكد يرى هذا الفرق الهائل بينه وبين الذاهبين إلى تبوك، حتى استيقظ ضميره، وقال : ((رسول الله وأصحابه في الشمس، والريح والحر، وأنا في ظل باردٍ، وطعامٍ مهيأ، وامرأة حسناء، فى مالى مقيم، والله ما هذا بخير!)) فما لبث أن توشح بسيفه

ورمحه، وارتحل بعيراً سريعاً وأخذ في السير، حتى لحق بركب المجاهدين حين نزل تبوك أشعث الرأس مغبرّ الثياب !

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

لِيَنفِرُوا كَافَّةً: ليخرجوا إلى الجهاد جميعا .

هذه الآية الكريمة من القرآن، تتعلق - من ناحية - بالوضع محل النقاش، وتتحدث- من ناحية أخرى - عن أحد الأحكام الكلّية، فهي تدل - من جانب - على كيفية تنظيم التعليم والتربية للبدو القاطنين بأطراف المدينة إذْ ذاك، كما أنها - من جانب آخر - تسلط الضوء على تلك الأسس المبدئية التي ينبغي أن يقوم عليها نظام التعليم الديني والبناء التربوي الإسلامي للأجيال الجديدة .

التعليم عملية لا يُستطاع القيام بها كما ينبغي، إلا إذا تفرغ لها المرء منقطعاً عن كل الشواغل الأخرى، فلو أن الناس انشغلوا بأجمعهم في العملية التعليمية، لتعطلت الأنشطة والمصالح الحيوية الأخرى، كأعمال التجارة ومساعي كسب المعاش مثلاً، والمنهج الإسلامي لا يسمح بإنجاز عملٍ مع الإخلال بعمل آخر، ومن ثم أقر مبدأ التناوب، بحيث إذا التحق بعض الناس بمركز التعليم والتربية، ظل الباقون سواهم، مشغولين بأداء الواجبات والنشاطات الأخرى، حتى ينتهي الأولون من التعليم على وجهٍ أتم وأفضل، وهكذا سيجري كلا العملين معاً دون أن يتأثر أحدهما بالآخر ..

ويُلاحظ أن الآية الكريمة قد عبرت عن التعليم الإسلامي بـ «التفقه في الدين»،وليس المقصود بهذا هو التعليم الفقهي المعروف؛الذي هو المعرفة التفصيلية بشكل الدين،والذي نتج عن صيرورة علم الدين مترادفاً مع علم المسائل والأحكام الدينية، وإنما أريد بـ «التفقه في الدين» هنا أن تعلم الدين الأساسي المنزل من عند الله، وتصبح قادراً على فهمه فهماً عميقاً شاملاً ، فالمراد بذلك هو العلم الذي يؤدي إلى

معرفة الحق ، والذي ينبئ بالحقائق الأساسية الثابتة، ويعلمه كيف يبنى حياته على دعائم الآخرة .

وغاية هذا التفقه فى الدين أو التعليم الديني، هو تأهيل المرء ليقوم بواجب إنذار القوم، والإنذار معناه التخويف، وقد استخدم هذا اللفظ في القرآن الكريم بمعنى التحذير والتخويف من قضية الآخرة، ومن هذا نعلم أن التعليم الإسلامي يهدف إلى إعداد أفراد أكفاء على النهوض كمنذري الأقوام والشعوب من قبل الله تعالى، حتى يخشى الناس من الله، ويجتنبوا في الحياة الدنيا تلك الأعمال التي من شأنها أن تؤدي بهم إلى عذاب الآخرة الأبدي، إن التعليم الإسلامي هو تعليم الدعوة إلى الله، وليس علماً لتلقين المسائل الفقهية وجزئيات الأحكام الشرعية، وعلى هذا الاعتبار ينبغي أن يحتوي منهج التعليم الإسلامي على مادتين رئيستين :

أولاً : القرآن والسنة .

ثانياً: كل العلوم الضرورية التي تمس إليها الحاجة بالنسبة للمدعو، على سبيل المثال اللغة أو اللغات التي يتحدث بها المدعو، ومناهج تفكيره، ونفسياته وما إلى ذلك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

غِلْظَةً: شدة ومجاعة ، وحمية وصبرا .

رِجْساً: نفاقا وكفرا .

يُفْتَنُونَ: يمتحنون بالشدائد والبلايا .

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾تدل هذه الجملة على أن الكفاح الإسلامي ليس كفاحاً غير مخطط أو غير مدروس، بل لابد فيه من أخذ الترتيب أو المرحلية بعين الاعتبار، أى يجب أن تنطلق محاولاتنا فى سبيل إزالة العقبات والعوائق من قاعدة البدء بالأقرب فالأقرب، ثم تنتقل بعدئذ إلى الأبعد فالأبعد، ومن هذا ندرك أيضاً أنه ينبغي أن نبتدئ أولاً بمجاهدة أنفسنا ذاتها، فإن نفس المرء هى أقرب وأدنى ما يكون منه، أما أعداء الخارج فيأتي دورهم فى المرحلة التالية، ثم المطلوب الأولى بإزاء أعداء الإسلام أنفسهم هو الشدة والغلظة، وهي تعني أن نتعامل معهم بنوعٍ من الصلابة والصرامة يوقع المهابة لنا في صدورهم، والرعب فى قلوبهم[1].

كما يجب أن تجري كل العمليات لمواجهة العدو على أساسٍ من التقوى، فمسلك التقوى هو وحده يضمن للمسلمين النصرة الإلهية، وعندما ينحرفون عن جادة التقوى يحرموا من نصر الله ومعيته .. ومن خصائص القرآن، كما بينه القرآن نفسه، أن آياته، إذْ يستمع لها المؤمنون، تزيدهم إيماناً، غير أن زيادة الإيمان هذه إنما تتوقف على الاستعداد القلبي للمرء، وليس على مجرد الاستماع للآيات، فقبل حوالي الألف والخمسمائة سنة، عندما نزل القرآن الكريم، لم يكن يستطيع إدراك أهمية القرآن وعظمته، سوى أولئك الذين يملكون الاستعداد لرؤية الحقيقة في صورتها المجردة، أما المنافقون عَبَدة الظواهر، فقد كانوا خلواً من هذا الاستعداد؛ ولذا فقد كانت ألفاظ القرآن تبدو لهم محض ألفاظٍ، حيث كان يتعذر عليهم الفهم كيف يمكن أن تكون مجموعة من بعض الألفاظ والعبارات باعثاً على زيادة اليقين والثقة لدى أحد الناس، وبالتالي فإذا ما نزلت آية أو سورة جديدة من القرآن أخذوا يستخفون بها قائلين : أيكم زادته هذه

---

(١) تفسير الجصاص .

الألفاظ العربية إيماناً ؟!

إن ذوي النظرات السطحية كانوا ينظرون إلى القرآن على أنه محض((كتاب)) وليس على أنه ((صحيفة صانعة التاريخ))، مما جعل هؤلاء الظاهريين السطحيين يُصابون بحيرةٍ وذهولٍ ؛ إذْ رأوا مبلغ أثر القرآن العميق في نفوس أولئك الذين كانوا ينظرون إليه بما يكمن فيه من جوانب العظمة والجلال والإعجاز، فكانوا يتساءلون قائلين : أليس هذا كتاباً قبل كل شيءٍ وبعد كل شيءٍ ! إذن فما وجه الغرابة أو العجب في مجموعةٍ لفظيةٍ يستهوي أفئدة الناس، ويسحر عقولهم، ويبلغ تأثيره في نفوسهم إلى هذا الحد البعيد !؟ .

والله - سبحانه وتعالى - يبتلي أمثال هؤلاء بضروب شتى من المحن والصدمات في حياتهم، حتى تلين قلوبهم، وتزداد حساسيتهم فيقدروا على إدراك الأمور على نحوٍ أكثر عمقاً ودقةً، غير أن أي شيء خارجي لن يكفي لعظة المرء إذا كان لا يريد بنفسه أن يتعظ، وإن إهمال المرء للموعظة، كلما عرضت له، وعدم وقوفه عندها، من شأنه أن يجعله بمرور الأيام جامد الحس فاقد الشعور ، إزاء الموعظة مهما كانت بليغةً ومؤثرةً ..

وفي قوله : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ أريد بـ ((الفتنة)) الابتلاء بالقحط، والمرض، والجوع..إلخ .. فمثل هذه الكوارث والنكبات يتعرض لها المرء في حياته مرةً وأخرى، ولكنه لا يستمد منها غذاء التوبة والعبرة، وإن التوبة في الحقيقة، هي اسم ثانٍ لنتيجة التذكر والاعتبار، فيحدث مع كل إنسان أن تواجهه بالضرورة بعض الأحداث غير العادية مرةً أو مرتين على مدار السنة، وتأتي هذه الأحداث مثيرة إلى الحقائق الإلهية، فهي تذكّر المرء تارةً بضعفه وعجزه إزاء الخالق، وهي تُظهر تارةً هوان العالم الراهن بالنسبة إلى عالم الآخرة، وفي مثل هذه المواقف يتم اختبار المرء بأن يتخذ منها مادة درسٍ لنفسه، وأن ينظر من خلال تلك الأحداث المادية إلى الحقائق غير المادية .. ولكن ما

الذي يُعجز المرء عن تلقي الدرس من شيءٍ ينطوي على أبلغ درسٍ ؟!

السبب في ذلك يرجع إلى عدم تمكنه من ربط شيءٍ بآخر، فإن تلقي الدرس أو استمداد العبرة من واقعات الدنيا يتطلب قدرة المرء على أن يكتشف علاقة بين أمرين أو أمورٍ ترتبط ببعضها، وأن ينظر إلى الواقعة الظاهرية مقرونةً بالحقيقة الكامنة العاملة وراءها، وأن يقرأ في مرآة ما قد وقع فعلاً، ما لم يقع بعد!

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

عَزِيزٌ عَلَيْهِ: صعب وشاق عليه .

مَا عَنِتُّمْ: عنتكم ومشقتكم .

حَسْبِيَ الله : كافى الله ومعينى .

رسمت هاتان الآيتان شخصية رسول الله ﷺ التى تتلخص أبرز ملامحها في أنه - عليه الصلاة والسلام - إنما يعتمد في كفاح الإسلام الاعتماد كله على الله الواحد الأحد ليس غير، وأن الله الذي نهض يدعو الناس إليه، هو إله يملك كل أنواع القدرة والسلطة، وعنده مفاتيح كل الكنوز، وإذا كان الرسول واقفاً على أرضية الإيمان واليقين الصلبة هذه، فمن الطبيعي أن يكون الله الواحد هو وحده موضع ثقته، وأن يسخر نفسه لخدمة الحق غير مكترثٍ بالمصالح والمخاوف على اختلافها .

كما نعت الله رسوله بأنه على جانبٍ عظيمٍ من الشفقة والرحمة بالناس، حيث إنه يتألم لما يلقاه الناس من عناء أو مشقةٍ كما لو كان هو الذي تعرض لتلك المشقة، وأنه يرغب في أن يهتدي الناس إلى ربهم رغبةً شديدةً بلغت حد الحرص، وأن الشيء الذي بعثه على كفاح الدعوة إلى الحق هو عاطفة النصح لعموم البشر، وليس أي طموح شخصي أو

قضية قوميةٍ، فهو إنما يكافح أولاً وأخيراً من أجل فلاح الناس، وليس لأجل فلاحه الذاتي .

وقد روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لم يحرّم حرمةً إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب» (١).

وصورة الرسول الكريم هذه تمثل الصورة الدائمة لداعية الحق في كل زمانٍ ومكانٍ، ونعلم منها أن ثمة صفتين بارزتين ينبغي أن يتحلى بهما الداعية المسلم بصفةٍ خاصةٍ، أما الأولى: فهي أن يضع ثقته في الله تعالى وحده ليس غير، وأما الثانية: فهي أن تكون عاطفة الحب والنصح للمدعو قد ملأت جوانحه كلها، بحيث لم يبق هناك أي شيءٍ آخر سواها، ومع أن الداعية يواجه ألواناً شتى من الأذى والإساءة من قبل المدعو، وربما يمكن أن تثور بينه وبين بعضهم النزعات القومية والمادية، ولكن المطلوب من الداعي - بالرغم من ذلك كله - أن يعرض عن هذه الأشياء، ولا يدع نفسه تستيقظ فيها أية نزعةٍ أخرى غير عواطف الرحمة والرأفة بالمدعو، فلابد للداعي أن يرتفع بنفسه فوق نفسية رد الفعل، فيكون ناصحاً للمدعو من طرفٍ واحدٍ، حتى وإن كان المدعو قد اتخذ نحوه موقفاً غايةً في الإثارة والإساءة، فإن الداعي يعيش لأجل الله، والمدعو يعيش لأجل ذاته .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده .